العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
شعبة الدراسات والنشرات

نقد الإلحاد التطوري

تأليف

موفق هاشم عبيد

العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
شعبة الدراسات والنشرات
كربلاء المقدسة
ص.ب (٢٣٣)
هاتف: ٣٢٢٦٠٠، داخلي: ١٧٥-١٦٣

www.alkafeel.net
info@alkafeel.net

الكتاب: نقد الإلحاد التطوري.
تأليف : موفق هاشم عبيد.
الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة.
التدقيق اللغوي: مصطفى كامل محمود، عمار كريم السلامي.
الاخراج الطباعي والتصميم: علاء سعيد الاسدي، محمد قاسم النصراوي.
المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر.
الطبعة: الأولى.

جمادى الأولى ١٤٤١هـ-كانون الاول ٢٠٢٠م

مقدمة

ربما يقال إن الرد على شبهات الإلحاد والملحدين كُتِب فيه كثير من الكتب والبحوث والإصدارات! فلمَ التكرار وخسارة الطبع والتكلفة والجهد ومضيعة الوقت؟! والجواب هو أن الآخرين المناهضين للدين هم من يقومون بالتكرار والإلحاح في إثارة شبهاتهم بكل ما أوتوا من قوة! مستغلين كل الوسائل والأدوات في نشر مبتغاهم، حتى تأثّر بهم وما زال البعض من قليلي الثقافة والاطلاع، ولاسيما الشباب الفاقد للمناعة الفكرية، فكانوا فريسة سهلة الاصطياد والوقوع في شباك غيّهم وانحرافاتهم، لذا كان حريا بمن توفّرت لديه امكانيات الدفاع عن الدين أن يرد عليهم، إذ إن التكرار مطلوب إن كان الخصم يكرر ويجد في إثارة الحرب الفكرية على ديننا، إيمانا منا بشعار (وإن عادوا عدنا)، إضافة الى أن التكرار في حد ذاته بمواضيع الهداية والإرشاد يبدو مفيدا ومؤثرا في السامع والمتلقي، وكما يقول المثل الشهير: (كثر الدق يفل الحديد!).

ومن نافلة القول إن التنوع في الردود وتغاير الأساليب له فائدة

جليلة؛ لاستساغة الناس التنوع والتغيير، بما يخدم الدفاع عن العقيدة ورد الشبهات، فيستفاد طالبي الحق والحقيقة بكل أذواقهم وتوجهاتهم، ناهيك عما قد تعطيه الردود المتعددة والمكررة من تكامل في العمل، فالأفكار يكمل بعضها بعضا، أو تثير أفكارا لدى البعض الآخر فيبني عليها ما لم يتهيأ لأصحابها سابقا.

ومما يجدر ذكره أننا نعني بالإلحاد التطوري -إن صح التعبير- ذلك الإلحاد المبتني أو المنبثق عن البيولوجيا التطورية، الذي يذهب أتباعه الى أن أصل الكائنات كانت بسيطة وحيدة الخلية، وراحت تتقدم بالتطور والتعقيد شيئا فشيئا حتى وصلت قمة التطور الى القرود فالإنسان!! وهو ما يعني عند هؤلاء ضربة قوية كشفت -بحسب ما يرون- زيف نظرية الخلق التي جاءت بها الأديان السماوية! واعتُبرت هذه النظرية كشفا صدم ضمير الإنسانية، وأدى بها الى انحرافات فكرية وعقدية، رغم كونها لا تتعدى حدود النظرية! وكما يقول د. عبد الوهاب المسيري في الجزء الثاني من موسوعته القيمة (اليهود واليهودية والصهيونية) (مادة الدارونية الاجتماعية): (لعله لا توجد فلسفة أثرت في عصرنا الحديث أكثر من الفلسفة الدارونية، كما لا توجد فلسفة بلورت الرؤية العلمانية أكثر من الفلسفة الدارونية: ١. فقد رسخت الفلسفة الدارونية أفكار

الواحدية المادية التي تذهب الى أن العالم إن هو إلا مادة واحدة ... ويُفسر كل شيء بالتطور المادي. ٢. الانسان إن هو إلا جزء من هذه الطبيعة وهذه المادة، وقد صدر هو أيضا عنهما من خلال عملية التطور ... ولا يحمل أية أعباء أخلاقية، فالقوانين الأخلاقية هي مجرد تطور لأشكال من السلوك الحيواني الأقل تطورا والحرص الغريزي على البقاء البيولوجي... وهذا يعني أن كل الأمور نسبية تماما ولا توجد أية مطلقات، ولذا يمكن القول بأن النظرية الدارونية هي الأساس العلمي للفكر النسبي. وإذا كان التطور يتم أحيانا عن طريق الصدفة وتحدده الحوادث العارضة فيمكن القول بأن النظرية الدارونية هي أيضا أساس الفكر العبثي..).

الفصل الأول

مقدمات عن الإلحاد ونظرية التطور

الإلحاد ظاهرة موغلة في القدم!

يذهب البعض الى أنه من العسير تحديد تاريخ للإلحاد، معللا ذلك بعدد من الأسباب، منها إن الإلحاد مصطلح ذو معنى غير واضح، إضافة الى أن معناه في الماضي يختلف عن معناه في الحاضر، لكن مع ذلك يمكن القول إن الإلحاد له معنى عام وآخر خاص، فالإلحاد بالمعنى العام هو النفور عن الدين بغض النظر عن كونه دينا إلهيا سماويا أو دينا أرضيا مبتدعا، أما الإلحاد بمعناه الخاص فيعني النفور والكفر بالأديان السماوية ذات الارتباط الإلهي السماوي، بغض النظر عن كونها أدياناً محرفة أم لا.

والإلحاد كظاهرة ليس جديدا، إذ يتصور كثيرون أن الإلحاد الديني ظاهرة حصلت في العصور المتأخرة، ولاسيما بعد حركة النهضة العلمية التي نشأت في أوربا، لكن التحقيق في تاريخ الإلحاد يُظهر أنه ظاهرة قديمة قدم التاريخ! فجذوره تمتد الى الحقبة الهندية القديمة! وبالتحديد قبل الميلاد بألف عام، حيث أُثيرت أولى الشكوك حول الإلحاد في كتابهم المقدس (الفيدا)، وهو أقدم كتاب ديني للهنود، وبعد عدة قرون

ظهرت البوذية التي استلهمت أفكارها من الفيدا، وقد عمل بوذا (٥٦٣ ق م – ٤٨٣ ق م) على نقل بؤرة التركيز التي كانت ممثلة بالآلهة، الى التركيز والاهتمام بمعاناة الإنسانية وكيفية معالجتها، ناسبا سبب الآلام والمعاناة الى رغبات البشر وتعلقهم بالشر، وعند عدم تحقيق الرغبات يبرز الألم، لذلك فلابد من التخلص من الرغبات أولا، ثم الوصول الى اللاتعلق واللارغبة (النرفانا)، وهنا يتوحد الإنسان مع الكون وينصهر فيه، والبوذية بذلك لا تهتم بالآلهة وإنما بالإنسان والمجتمع البشري ككل، ولا يعنيها الإله والخالقية والربوبية وما الى ذلك، وقد قيل إنه عندما وجه سؤال الى بوذا عن وجود الله لم يجب، وربما نستطيع أن نقول إن لدى البوذية مقاربة لما موجود من فلسفة وجودية لا يهمها سوى الإنسان وحده.

أما في بلاد اليونان فحسب حدود علمي واطلاعي أن أول من أُتّهِم بالإلحاد هناك هو النحات اليوناني (فيدياس) المولود عام ٥٠٠ قبل الميلاد، الذي تجرأ على الآلهة بما لا يتفق مع إيمان اليونانيين بها، وإن كانت هنالك ملامح لهذا التجرؤ قد بان في كتابات (هزيود) المؤرخ اليوناني الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد، وبعد (فيدياس) وجهت تهمة الإلحاد للكاتب اليوناني (يوربيديس) المولود عام ٤٠٧ قبل الميلاد،

بيد أن أكثر من اشتُهر بتهمة الإلحاد في الحقبة اليونانية هو (سقراط)، الذي اتهمه بعض الفلاسفة بازدراء آلهتهم والتجرؤ على الدين اليوناني، حتى حكموا عليه بشرب السم عام (٣٩٩) قبل الميلاد، فمات مسموما غير مأسوف عليه. وكان (أفلاطون) اليوناني أبرز من عُرف عنه وقوفه المتشدد ضد الزندقة والزنادقة، وبانت في كتابه (الجمهورية) تلك الشدة، إذ دعا الى إعدام كل من تسوّل له نفسه التطاول على الآلهة.

ومما لابد من ذكره أن الفلسفة الطبيعية انتشرت في بلاد اليونان في القرن السادس قبل الميلاد، على يد طاليس الملطي وأتباعه، لكن انعطفت تلك الفلسفة نحو المادية البحتة على يد (ديموقريطس) من خلال ذهابه الى أن الذرات هي العنصر الأساسي للكون، ملغيا دور الآلهة ووجودها في عالم المادة، تلاه بعد ذلك (أبيقور) المتوفى في القرن الثالث قبل الميلاد، الذي عُدّ أول فيلسوف ملحد في العلن والظاهر، وما دونه في (مجادلة الشر) يدل على ذلك.

ومن نافلة القول إن ما عنيناه من (الإلحاد اليوناني) إلحاد بالمعنى العام، وإلا فإن الإلحاد في أعرافنا المعاصرة مصطلح يراد به إنكار وجود إله للكون (الله)، وإنكار الإيمان بالأديان التي تدّعي بأن لها ارتباطا على نحو ما بالله جل ذكره، في حين أن (الإلحاد اليوناني) هو إنكار الدين

السائد في تلك البلاد، الذي كان يقوم على تعدد الآلهة وتوزيع المهام الكونية عليها، على أنها جميعا كانت تحتكم الى كبير الآلهة (زيوس)، الذي له السيادة والسلطة على الجميع، وبالتالي فإن الإلحاد بعنوانه العام يعني إنكار الإيمان بالأديان بغض النظر عن كونها أديانا يعود منبعها الى الله جل جلاله، أو أديانا منبعها الهوى والباطل ومتجهة الى الأصنام أو الى أي شيء آخر غيره تعالى.

بدايات ظهور الإلحاد في المجتمع الإسلامي

بدأت حركة الإلحاد بالظهور في المنطقة العربية والإسلامية منذ القرون الأولى من التاريخ الهجري! ويعود انبثاق هذه الحركة الى أسباب عديدة، ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه (من تاريخ الالحاد في الاسلام) ص٨ ما نصه: (كانت الروح العربية في القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة قد استنفذت كل قواها وإمكانياتها الدينية الخصبة التي كانت لها من قبل خصوصا في المسيحية واليهودية والمانوية والزرادشتية ثم الاسلام الذي توج هذه الأديان كلها بأن أعطى أكمل صورة للدين قدر لهذه الحضارة العربية بلوغها؛ فكان لا مناص لها بعد هذا أن تنحدر من تلك القمة وتستفرغ إمكانياتها الدينية حتى تغيض عنها موارد التدين جملة، وهذا ما تم فعلا في القرن الثالث والقرن الرابع على وجه التخصيص). وأعتقد أن الدكتور بدوي بالغ فيما ذهب إليه، وربما فاته أن رد فعل بعض الفئات على الانحدار السياسي، وانصياع المؤسسات الدينية الرسمية آنذاك لتلك السياسات المصلحية التي

يمسكها الحاكمون أدت الى نفور كثير من الناس منها، حتى عُدَّت كل محاور الفشل ووجوهه عيالاً على الدين، إضافة الى انتشار الفقر والجهل والحروب والمشاكل الاجتماعية المتنوعة ساهمت كلها بانحلال بعض الفئات وتحررها من الوازع الديني، فصارت متهيئة لتقبّل الأفكار المنحرفة التي منها أفكار الإلحاد! أضف الى ذلك ما يبتغيه البعض من التحلل العملي والسلوكي، فالدين يمثل أكبر عقبة في طريق أهل الأهواء والرذائل والموبقات.

وهنالك رأي يذهب الى أن الشبهات الصادرة عن الشعوبية التي برزت كرد فعل على القومية العربية اجتُرّ على الإسلام؛ لأنها -أي القومية العربية- تقمصت الاسلام كرداء تمايزت به عن الامم الأخرى، وبالتالي فكان ضرب الدين الإسلامي عند هؤلاء ضربا للعرب! فالشعوبيون كانوا ينظرون الى أنفسهم أنهم أصحاب المجد والسبق والفضل في العلوم والثقافة والأدب والتاريخ، أما العرب فليس لهم أي تاريخ في العلوم والثقافة يضاهي ما لدى تلك الأمم، وما العرب -بحسب هؤلاء- إلا أمة جاهلة لا فضل لها ولا فكر ولا حضارة، وبالتالي كيف لهم أن يقودوا الامم؟ إذن لابد من نقض دينهم الذي يعد عماد سيادتهم وقيادتهم الناس شرقا وغربا!!

أضف الى ذلك فقد كان لانتشار الثقافة اليونانية أثر عظيم في نشر الثقافة الفلسفية بين المتعلمين، الذين عمل كثير منهم على إثارة الشبهات على الدين، بفعل ما تم لهم من تحرر فكري، جعل البعض منهم يتجرأ في طرح الشبهات والإشكالات التي اعتمدت على الثقافة اليونانية، تلك الثقافة التي انتشرت في البلاد الفارسية قبل دخولها المناطق العربية الإسلامية، وممن عُرف عنه تلك الثقافة من الفرس بولس الفارسي، وبرزويه في كليلة ودمنة، أما ابن المقفع (عاش في القرن الثاني) فما كان الا امتدادا لحركة الثقافة الفارسية ذات النكهة اليونانية، وهذه الثقافة نفسها كانت عند ابن الراوندي (عاش في القرن الثالث) وأبي بكر الرازي (عاش في القرن الرابع)، إذ عمل هؤلاء على تمجيد العقل، ومالوا الى تحكيمه وتعظيم دوره في نقد العقائد والأفكار الدينية.

وكان يطلق على من لديهم انحرافات عقدية تسمية (زنادقة)، فالزندقة انتشرت في البلاد الإسلامية اجتماعيا وأدبيا وفكريا، حتى اتُهم بعض من الوزراء بها!! ومثّل عصر المهدي العباسي (ت١٦٩هـ) أوج الصراع معهم، حتى شن عليهم حربا شرسة قُتل فيها الكثير، وكان كثير من أولئك الذين اتُهموا بالزندقة أُلصقت بهم بفعل دوافع سياسية وعداوات شخصية! وقد وصل الإلحاد في تلك الفترة الى أوجّه في

القرون الثالث والرابع والخامس مع ابن الراوندي والرازي، اللذين شاع عنهما أنهما كانا يثيران الشبهات والشكوك حول الدين والنبوة وما الى ذلك، وبعد تلك القرون خفتت حركة الإلحاد، ولم أجد حسب اطلاعي أحدا قد تناولها وحكى عنها بهذه الحدة التي كانت بارزة في العصر العباسي.

انبعاث الإلحاد من جديد

برزت مشكلة الإلحاد من جديد، لكن هذه المرة في أوربا المسيحية، ففي العام ١٥٧٤م حُكم بالإعدام على أحد النبلاء الفرنسيين، وكان اسمه (جيوفروي فاليه)، هذا الرجل ألف كتابا أنكر فيه وجود الله تعالى، وانتشر الإلحاد في الغرب فيما بعد بسبب شيوع الفلسفات المادية والاعتماد على المنهج التجريبي في كل شيء، حتى اجتُر ذلك المنهج الى أبحاث الفكر والعقيدة! بما ساهم بإخفات حركة الإيمان في تلك المناطق من العالم التي كانت تدين بالدين المسيحي. وقد شاع المذهب المادي في المناطق الغربية بفعل النتائج الباهرة لهذا المنهج على المستوى الصناعي والتكنولوجي، مما جعل الأكثرية في تلك المناطق تنظر إليه على أنه المنهج المناسب اتباعه في كل المناحي، حتى الدينية منها!

أما في بلادنا العربية والإسلامية في هذا العصر فقد ابتلينا بالحضارة الغربية التي غزتنا في كل شيء، حتى بات الكثير منا يتقمص الغربيين في أفكارهم وسلوكهم وغير ذلك، بل قاموا ببعث ما كان السلف الغربي قد أثاره ضد الدين من شبهات وافتراءات، حتى قال البعض منهم إن المسلمين هذه الأيام يمرون بما مرّ به الأوربيون إبان عصر النهضة

والثورة الصناعية، تلك الحقبة التي تطور فيها الفكر الغربي، الذي نفر من الدين وابتعد عنه بحسب ما يقول هؤلاء المتبعون للغرب! ولا أدري ما هي أوجه الشبه والتطابق بين مسلمي هذه الأيام ومسيحيي أوربا عصر النهضة!! فهل الاسلام عقيدة وفقها وسلوكا مثل العقيدة المسيحية وفقهها وسلوكها؟! أو إننا -نحن العرب والمسلمين -مثل الأوربيين في تلك الحقبة؟! نعم ربما هنالك بعض الشبه في بعض القضايا، لكن ذلك لا يمكن أن يُسحب الى أمور أخرى يترتب عليها أمور خطيرة جدا!!

وعلى العموم فإن الملحدين هذه الأيام يستندون في إثارة شبهاتهم على عدة قضايا، منها ما تكون علمية، وأخرى فلسفية انثروبولوجية وأخلاقية وما الى ذلك، والشبهات العلمية ضد الدين هي الأخرى تنتمي الى ثلاثة اتجاهات علمية: الاتجاه الأول بيولوجي، والثاني فيزيائي، والثالث سيكولوجي، وسنتناول في هذا الكتيب الاتجاه الإلحادي البيولوجي، الذي اختزل في النظرية التطورية الدارونية، وندعوه تعالى أن يوفقنا في عملنا هذا لما فيه خير الدنيا والآخرة، إنه سميع مجيب.

نظرية التطور بإيجاز

فكرة التطور فكرة قديمة، وجدت منذ قدماء اليونانيين، غير أنها كانت في وقتها ذات جنبة ميثولوجية أسطورية، ولم يكن لها تفسير علمي بعد، حتى نصل الى القرن الثامن عشر فقدم الفرنسي (لامارك) تفسيرا علميا عن التطور، جاعلا من البيئة والمحيط عوامل مؤثرة في التغييرات على الأجيال اللاحقة، تلاه (وايزمان) الذي رأى أن التغييرات لا ترثها الأجيال اللاحقة إن لم تكن في الخلايا الجنسية، مجريا على الفئران تجاربه التي أكد بها ما ذهب إليه، فقام بقطع ذيول الفئران حتى الجيل الخامس عشر، ولم يظهر أي جيل من الأجيال اللاحقة بلا ذيل!

وأكثر ما اكتسبت نظرية التطور شهرتها الكبرى عندما قام العالم الانكليزي (دارون) بطرحها على الساحة في كتاب خاص، حتى باتت تحسب له وحده بلا شريك، وأحدثت نظريته في التطور التي ظهرت قبل أكثر من ١٧٠عام هزة عنيفة في الوجدان الانساني، إذ كان الانسان قبل هذه النظرية ينظر الى نفسه نظرة فيها شيئا من النرجسية، فالبشر جميعا يعتقدون أن جنسهم (الانسان) كائن مميز ومستقل عن بقية

الكائنات، وهو الكائن المدلل من قبل الله تعالى، وما وجود الكائنات الأخرى إلا لأجل هذا المخلوق وفي خدمته، بيد أن تلك النظرية ذهبت الى أن أصل الانسان يعود الى الحيوانات! وبالأحرى يعود الى القردة! كما استغلها الذين في قلوبهم مرض، الذين لا يجدون شاردة وواردة إلا ووظفوها في هجومهم على الأديان الربانية، التي حاربوها بكل ما أتوا من قوة!

وتقوم النظرية على مبدأين: الأول هو التطور، والثاني الانتخاب الطبيعي، ومن دون هذين المبدأين لا يمكن فهم هذه النظرية، والتطور يعني أن «الكائن الحي يكتسب سمة جديدة عن طريق الطفرة الجينية التي تساعده على البقاء ومواجهة الصعاب، وهذه الطفرة تورث الى الأجيال اللاحقة»، أما الانتخاب الطبيعي فيعني «بقاء الكائنات التي تحتوي على طفرة جينية، بينما تموت تلك الكائنات التي لم تزود بتلك الطفرة الضرورية للبقاء، وبالتالي نجد أن تلك الكائنات ستنقرض من الوجود»، أما عن مبدأ الحياة فتذهب النظرية الى أن الحياة بدأت من تفاعلات كيميائية بظروف مؤاتية فأعطت كائناً وحيد الخلية يعيش في المياه، وهذا الكائن تطور بعد مرور ملايين السنين الى كائن متعدد الخلايا، كبر شيئا فشيئا، وصار مع مرور ملايين أخرى من السنين يتحول الى كائن أكثر تطورا، حتى خرج من المياه الى اليابسة، وبدأ هذا

الحيوان أيضا يتطور بفعل الحاجة والتكيف وما الى ذلك من ظروف خارجية حتى وصل الى الانسان، الذي يُعدّ الكائن الأكثر تطورا حتى الآن، بعد أن مرّ بمرحلة التطور عبر الأسماك ثم الزواحف وصولا الى الثديات، التي تدرّج فيها حتى مرّ بمرحلة القرود! قبل أن يصير إنسانا!!

ويستدل أنصار التطور بتلك القصة التي تحكي عن تطور السحالي، في فترة زمنية لا تتعدى الأربعين سنة! وتعود القصة إلى أنَّ مجموعة من العلماء قاموا بجلب خمسة أزواج من هذه السحالي من موطنها الأصلي؛ كي يُجروا عليها بعض التجارب. هذه السحالي هي في الأصل سحالي لحومية تتغذى على الحشرات، ومع اندلاع الحرب في تلك المناطق القريبة من الجزيرة هرب العلماء طلبًا للأمان تاركين وراءهم تلك السحالي، التي أخذت بالانتشار على الجزيرة الجديدة، والتي لم يكن غذاؤها متوفرًا فيها، وعوضًا عن ذلك كانت الجزيرة تزخر بتنوّع هائل من النباتات. بعد انقضاء الحرب وعودة العلماء إلى الجزيرة اكتشفوا أنَّ هذه السحالي غيّرت نمط غذائها، وأصبحت سحالي نباتية، وهذا التغيّر في نمط الغذاء صاحبه أيضا تغيّرات بيولوجية على مستوى جهازها الهضمي، وتغييرات تشريحية على مستوى الجمجمة؛ بل إنَّ سلوكها الاجتماعي تغيّر كذلك، فتوفر الغذاء على هذه الجزيرة ساعدها

في التقليل من عدوانيتها التي كانت تشتهر بها في موطنها الأصلي، حيث كان الصراع على أشده للظفر بوجبة عزيزة. لكن هل لنا أن نعتمد على هذه القصة التي لا يتعدى التغير الحاصل على السحالي أن يكون أكثر من تكيّف مع البيئة ومستجدات العيش! وهذا التكيف يحصل مع أغلب الكائنات وفي كل البيئات، وبالتالي فعلى أنصار التطور أن لا يستدلوا بالتغيرات التكيّفية على أنها دليل على التطور!

ومن نافلة القول إن باترك بور البروفيسور في علم الاحياء الطبيعي ومؤلف كتاب (دارون والداروينية) الصادر في باريس يقول عن نظرية التطور: كانت هذه النظرية بمثابة الزلزال الفكري الذي زعزع كلّ العقائد التقليدية السائدة عن أصل الكون والإنسان. ويقال بأنّ الإنسان أصيب بثلاثة جروح نرجسية على مدار القرون الأربعة الماضية، فالجرح النرجسيّ الأوّل سبّبته له نظرية كوبرنيكوس عن النظام الشمسي، فحتى عهده كنا نعتقد أن الأرض هي مركز الكون، وأنّ الشمس تدور حولها. أما الجرح الثاني الذي أصابنا في الصميم وشكّل طعنة لنرجسيتنا واعتزازنا بأنفسنا، فهو اكتشاف داروين. فقد كنا نعتقد أننا من جنس وبقية كائنات الطبيعة من جنس آخر، فإذا بداروين يجيء لكي يقول لنا بأننا حيوانات مثل بقية الكائنات الحية، ولكن بشكل أرقى. وكانت هذه الصدمة أكبر من الأولى بكثير لأنها جرحت كبرياءنا

وخدشت مشاعرنا، إذ قالت لنا بأننا من أصل حيواني، ولذلك فإن الكنيسة المسيحية أو الأوساط المحافظة شنّت حملة على داروين بعد صدور كتابه الشهير. واتهمته بالمادية والإلحاد والكفر بالله وغير ذلك من النعوت. بل لا تزال الأصولية البروتستانتية تلاحقه حتى الآن في أميركا وترفض تدريس نظريته للتلاميذ. أما الجرح النرجسي الثالث الذي أصاب البشرية، فكان هو اكتشاف فرويد لنظرية التحليل النفسي والقول بأنّ اللاوعي هو الذي يسيّر الإنسان وليس الوعي، على عكس ما كنّا نظنّ منذ مئات السنين.

أسباب التأكيد على النظرية

يبدو أن الأسباب والدوافع التي أسهمت في رواج نظرية التطور ازدحمت، وازدادت في دعمها هذه النظرية بكل ما أُوتيت من قوة، فكان هناك دافع القضاء على الدين! وهذا الدافع كان عند البعض الذي يرى الدين وسيلة من وسائل التخلف الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعلمي، والبعض الآخر ممن أراد أن يقضي على الدين لمرض في قلبه وكره تجاه أهل الإيمان، كالذين قال عنهم القرآن: ﴿يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾! وهنالك من روّج للنظرية التطورية رغبة منه في التحرر من الدين، ومن ثم التحرر من الأخلاق، وجعلها نسبية غير ثابتة! وهذا يبرر لهم الانحلال وعدم التقيد بارتكاب الأهواء والأفعال المتهتكة! على أننا لا ننفي وجود من وقع في وهم هذه النظرية وانطوت عليه حيلة شياطين الأنس، فهذا الدكتور اسماعيل أحمد أدهم أستاذ الرياضيات المصري انخدع أو توهّم بأن هذه النظرية تنسف فكرة الألوهية!! حتى ألف كتابا في إلحاده أسماه (لماذا أنا ملحد؟)! ويتحدث عما أثر في فكره وعقائده فيقول: «قرأت لدارون

أصل الأنواع وأصل الانسان وخرجت من قراءتها مؤمنا بالتطور»، وهذا أثر الدارونية في عقلية الرجل، صار ملحدا بالله ودينه! كما كان ستالين رئيس الاتحاد السوفيتي سابقا ملحدا بسبب كتاب أصل الأنواع لدارون! يقول ستالين في ذلك: «لقد كنت أنوي أن أصير قسيسا الى أن قرأت كتاب أصل الأنواع لتشارلز دارون فأعلنت إلحادي وتركت الكنيسة»! أما اليوم فنجد زعيم الملحدين في العالم أجمع ريتشارد دوكنز يذهب الى أن نظرية التطور الدارونية تمثل الطريق السريع الى الإلحاد. ولا أعلم لماذا يربط هؤلاء بين نظرية التطور والإلحاد؟! لأن التطور على فرض كونه حقيقة واقعية لا ينفي وجود إله للكون، فربما ارتضى هذا الإله خلق الكائنات تدريجيا عن طريق التطور، لا سيما وهو القائل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[1]. واليوم في هذه الآية ربما يعادل ملايين السنين أو أكثر! لأن اليوم في الحسابات الإلهية له مقاسات متعددة بحسب الموضوع، وهذا واضح من الآيتين الآتيتين: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾[2]. ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ

(١) ق: ٣٨.

(٢) السجدة: ٥.

كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[1].

كما وجد بعض قادة الدول الاستعمارية في النظرية ضالتهم المنشودة! إذ إنها تقدم لهم التبرير النظري والتطبيقي لإعلان حروبهم واستعباد الشعوب الفقيرة التي لم تصلها الحضارة بعد! مشبعين طمعهم في خيرات الآخرين وطاقاتهم! فالصراع من أجل البقاء، والبقاء للأصلح يتم من خلال التنازع والحروب، ومن ثم فطبيعي عندهم أن يقتلوا ويجرموا ويفعلوا أي شيء، ما دام ما يفعلونه خاضعاً لسنة التطور والتقدم والطبيعة!! ومن أكثر من تبنى هذه السياسة من الغربيين المستعمرين الزعيم الألماني هتلر، الذي راح يصنف الأجناس والشعوب بحسب أهوائه، جاعلا الجنس الألماني في قمة الشعوب، وبالتالي فلهذا الشعب أن يحتل العالم ويفعل بشعوبه ما يريد! فالسيادة للأصلح، والتنازع والحرب وسيلة لا مفر منها في تحقيق ذلك!

لقد ملأ كهنة الإلحاد الجديد الدنيا ضجيجا وضوضاء بهذه النظرية الميتافيزيقية حتى الآن ! فهي لم تتعدّ أن تكون نظرية ليس إلا! ربما تكون صائبة وربما لا! ولم يفتأ أنصار التطور يلقنون أتباعهم بأنهم من سلالة القردة! لا لقضية علمية بحتة، وإنما من أجل ضرب

(١) المعارج: ٤.

الدين وأتباعه وإشاعة الإلحاد بين الناس! وربما هم صادقون بقولهم أن الانسان من سلالة القردة! فذلك أكثر ما ينطبق عليهم أنفسهم، لأنهم التطور الطبيعي لأولئك الذين مسخهم الله وقال لهم: ﴿**كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾! فما أشبه هؤلاء بأولئك، أدركوا الحق ووعوه بيد أنهم جحدوا به وكفروا!

وفوق ذلك فإن مفهوم التطور تعمم على أكثر جوانب الحياة بعد أن كان مفهوما علميا بحتا، إذ اتخذت الدارونية بُعدا أيديولوجيا وفلسفيا محورها البقاء للأصلح والأقوى! حتى بتنا نسمع أن هنالك الدارونية الفلسفية، والدارونية الأخلاقية، والدارونية السياسية، والدارونية الاقتصادية، والدارونية الدينية وغيرها، فصارت الدارونية تحيط بنا من كل جانب!

الحياة صراع من أجل البقاء!

من الأسس التي قامت عليها نظرية التطور الدارونية إن الحياة صراع من أجل البقاء، فتطور الكائنات يعتمد على النزاع فيما بينها، يفوز فيها القوي ويخسر الضعيف النزال ليتقهقر ومن ثم ينقرض! ووفقا لهذه النظرية فإن الحروب والنزاعات على الأرض كانت وما زالت وستبقى على أوجها بين الكائنات جميعا، وهي سنّة الطبيعة التي تجري على الجميع منذ أن وجدت الحياة، وهذا نزاع أبدي محكوم بالبقاء والثبات، وليس له أن يتطور يوما ما ويتحول الى تعاون وسلام!

وهذا الصراع الذي أتى به الدراونيون الى ساحة الإنسان، من خلال تطبيقه على الأجناس البشرية المتنوعة، ما أتوا به إلا ليبرروا النزاع والصراع الوهمي العنصري الذي يروّج له دعاة الجنس الأوربي الأبيض، المرموق والمتعالي على غيره من الأجناس البشرية، فهو الجنس والعنصر الإنساني الموهوب، أما بقية الأجناس الأخرى كالأفريقية والآسيوية والأمريكية اللاتينية وما الى ذلك فهي قد تأخرت عن التطور لصالح الجنس الأبيض، حتى ألمح بعض من أنصار هذه النظرية

العنصريين بإمكانية انقراض هذه الأجناس في المستقبل القريب! بعد أن يتطور النزاع معهم في البقاء للأصلح الأوربي! وهم يذهبون الى أن لابد من استئصال تلك الجماعات المتخلفة من البشر لصالح العنصر الراقي الذي يستحق الحياة والبقاء!

ويبدو أن نظرية دارون قد أضافت الشيء الكثير لما أتى به المفكر البريطاني الشهير روبرت مالثوس (المتوفى عام ١٨٣٥) حول القسوة والسكان، إذ كتب مالثوس مقالا عن تزايد السكان والبشرية وما يمكن أن يحدث بعد أن تصل أعداد الناس الى نسب كبيرة جدا من نقص في الغذاء والماء والسكن وغير ذلك، حيث أكد مالثوس أن الناس إذا تركوا وشأنهم فإن الأرض ستزدحم بهم لا محال، لكن لحسن الحظ -كما يذهب- أن هنالك حروبا وصراعات وكوارث طبيعية وما شاكلها، كلها تساهم بشكل أو بآخر في تحديد أعداد البشر ضمن نطاق معين! وقد اجتمع كثير من الشخصيات التي تنتمي الى الطبقات العليا في أوربا، وناقشوا مشكلة السكان المتزايد التي اكتشفت مؤخرا، وقد خرج المجتمعون بتوصيات عديدة، منها يجب العمل على إشاعة العوامل التي من شأنها أن تساهم في كثرة الوفيات بين الناس لا سيما الضعفاء منهم، فيجب افشاء النصائح المغلوطة ليتفشى المرض بينهم

ومن ثم يموت عدد كبير منهم بالطاعون وغيره من الأمراض! فهل يا ترى كان دارون ملهَما بالثوس ونظريته المرعبة؟!

واستُثمرت الدارونية من قبل كل من ماركس وأنجلز داعيتي الشيوعية ومنظرَيها! فكلاهما على ما يبدو قد قرأ كتاب دارون (أصل الأنواع) وانبهر بأسلوبه الذي انتهج فيه المنهج المادي الجدلي، وقد بينت المراسلات التي كانت بين ماركس وأنجلز الى اتفاقهما على اعتماد نظرية التطور الدارونية كأساس للشيوعية في التاريخ الطبيعي! وقد امتدح أنجلز في كتابه (المنطق الجدلي للطبيعة) دارون كثيرا، وقد يتوهم البعض أنه ربما كان ثملا عندما عنون فصلا فيه بعنوان (الدور الذي لعبه العمال في التحول من القرد الى الانسان)! وكان بليخانوف مؤسس الشيوعية في روسيا يعتبر أن الماركسية تطبيقا للدارونية في العلوم الاجتماعية. وقال تروتسكي وهو من أقطاب الشيوعية في روسيا «يجسد اكتشاف دارون أعلى نصر للمنطق الجدلي في مجال المادة العضوية بأكمله». وقد لعب التعليم الداروني دورا رئيسا في تشكيل كوادر الشيوعية، فعلى سبيل المثال لاحظ المؤرخون حقيقة أن ستالين كان متدينا في شبابه، ولكنه أصبح ملحدا بسبب كتب دارون.

ومن أبشع من استثمر الدارونية وتأثر بها هم النازيون، التي تُعد

من أكثر الحركات والايديولوجيات تطرفا واستعمالا للقوة من أجل تحقيق أهدافها، حتى لو كان ذلك على حساب نصف سكان الأرض! والنازية حركة عنصرية نشأت في أوربا وبالتحديد في ألمانيا، وقد قامت بحروب عديدة سفكت فيها الدماء الكثيرة، متخذة من فكرة الصراع الدارونية والبقاء للأصلح مبررا لها في ذلك! فمن يقرأ كتاب (كفاحي) للزعيم الألماني أدولف هتلر يجد أفكار الدارونية واضحة جلية! إذ راح هتلر يطبّق ما استلهمه من النظرية على الواقع! مفتتحا بيديه الحرب العالمية الثانية، التي راح ضحيتها (٥٥) مليون قتيل!! عدا الجرحى والخسائر المادية، وأفواج اليتامى والأرامل والأمراض النفسية وما الى ذلك من دمار ما زالت البشرية تعاني من تبعاته الى اليوم. فمن المصطلحات التي كان يحتويها كتاب هتلر (كفاحي) مصطلحا (الانتقاء الطبيعي) و(الصراع من أجل البقاء بين الأجناس)، وهي مصطلحات وأفكار مستوحاة من النظرية الدارونية، وقد تكرر ذكرها كثيرا في هذا الكتاب الذي يعد الملهم الأول بالنسبة للنازيين وأمثالهم من العنصريين البيض! وقد وصف المؤرخ هيكمان في كتابه (الخلق الحيوي) الصفحة ٥١ -٥٢ تأثر هتلر بالدارونية بقوله: «كان هتلر مؤمنا راسخا بالتطور ومبشرا به، وأيّاً كانت عقده النفسية الأعمق والأعوص، فإن من المؤكد أن فكرة الصراع كانت مهمة بالنسبة له؛ لأن كتابه كفاحي يبين بوضوح

عددا من الأفكار التطورية، وخاصة تلك التي تؤكد على الصراع، والبقاء للأصلح، وإبادة الضعفاء لإنتاج مجتمع أفضل».

الفصل الثاني

نشأة الحياة كما يراها علماء الطبيعة التطوريون

مراحل نشأة الحياة

تُعد مسألة نشأة الحياة مشكلة معقدة وعويصة، وكل ما طُرح فيها الى الآن لا يعدو أن يكون تكهّنات قابلة للأخذ والرد، لذا فإن ما قاله العلميون في هذا الخصوص يجب إخضاعه للعقل ليحكم عليه وفق البديهيات التي استحكم بها الفكر الانساني، ولابد من تحرير التصوّرات العلمية للنشأة الحياتية من الاستغراق المبالغ كثيرا في النظرة المادية السائدة عليها وعلى المجتمع العلمي الذي تقمّص النظرية الداروينية، وجعل منها الراية التي تُعبّر عن هويته العلمية في التفسير الحياتي للكائنات في هذا العالم الشائك والمعقد.

ويرى العلم أن الحياة بدأت من الناحية البيولوجية من خلال أربع مراحل:

١. نشأة الجزيئات العضوية.

٢. نشأة جزيئات الحياة: (DNA) و(RNA) و(البروتينات).

٣. نشأة الخلية الحيّة.

٤. نشأة الكائنات عديدة الخلايا.

ونشأت المركبات العضوية من عناصر الكربون والأوكسجين والنيتروجين والفسفور والهيدروجين والهيليوم، وهذه العناصر الآنفة نشأت هي الأخرى من الهيدروجين والهيليوم بعد اتحادات متتالية ومتكررة فيما بينها، أما ذرات الهيدروجين والهيليوم فقد نتجتا من اتحاد جسيمات تحت ذرية تسمى (الكوركات)، أما هذه الجسيمات تحت الذرية فقد تكونت من خلال تكثيف كمية من الطاقة المتحررة من عملية الانفجار الأعظم، وهذا يعني أن العملية سارت وفق المخطط الآتي:

الانفجار الأعظم———> طاقة عظيمة ———>

كوركات وفوتونات —> نيوترونات وبروتونات وإلكترونات —>

نواة وإلكترونات ——> (ذرة الهيدروجين + ذرة الهيليوم) ——>

بقية عناصر الجدول الدوري الأخرى —> المركبات العضوية —>

جزيئات الحياة (الدي أن أي) و(الآر أن أي) والبروتونات———>

الخلية———> كائنات متعددة الخلايا ومنها الانسان.

ومما يجدر بنا ذكره أن التطور اليوم في (الدراسات العلمية) لا يتوقف على حدود الكائنات الحية التي استهدفها دارون بالدراسة سابقا، بل الآن تُدرس عملية التطور لتشمل أحداث وتغيرات ما قبل الحياة، فالتطور كنظرية شاملة تظهر في أربعة أحداث كبرى متتالية زمنيا، وهي:

١. نشأة الكون من العدم، متمثلا بعملية الانفجار الأعظم التي حدثت قبل حوالي ١٣,٧ مليار سنة، يشمل ما تلى الانفجار من تحولات للطاقة الى مادة حتى تكونت الأرض قبل حوالي ٤,٥ مليار سنة.

٢. ظهور الحياة على الأرض من مادة غير حية قبل ٣,٧ مليار سنة، وتمثل ولادة الخلية الحية من مجموعة المواد العضوية والهيدروجين والنيتروجين وما الى ذلك من المواد الضرورية في ظروف معينة ملائمة.

٣. تطور الخلية الواحدة الى كائنات متعدد الخلايا وصولا الى الحيوانات الثدية.

٤. ظهور الإنسان على مسرح الحياة في الأرض، عن طريق تطوّر القرود!

ومن ذلك يظهر أن أحداث النقطة الأولى والثانية لم تكن ضمن نظرية التطور الداروينية، كما أن الباحث في نقطة ما من نقاط التطور الشامل لا يستطيع أن يهمل أي نقطة من نقاطه الأربع، فهي أحداث مترابطة، يهيئ السابق منها الى اللاحق، غير أننا سنتحدث في هذا الفصل عن التطور البيولوجي الذي يتكئ عليه كثير من الملحدين والناكرين للألوهية والخلق على السواء، وسيتضح أنه حتى مع ذلك التطور لا يمكن أن تكون الصدفة والعشوائية هي المتحكمة به؛ لأن ذلك يستدعي زمانا أطول بكثير من زمن تكون الكون، كما يتطلب مكانا أكبر بكثير من حجم الكون الحالي أضعافا مضاعفة!! كل تلك الحسابات جرت وفق آلية الاحتمالية الرياضية التي تسير وفق مقتضيات العلم الحديث، وسنبين هنا مراحل نشوء الحياة على هذا الكوكب الجميل، ليتضح بعد ذلك هل من الممكن أن تكون تلك العمليات المعقدة جدا جدا من صنع الصدفة والطبيعة بحسب ما يدّعي ريتشارد دوكنز وأضرابه أو لا؟!

تكوّن الجزيئات العضوية

قيل إن عنصري الهيدروجين والهيليوم تكونا من اتحاد النيوترونات والبروتونات والالكترونات، ومن هذين العنصرين تكونت باقي عناصر الجدول الدوري، ومنها الكربون والأوكسجين والفسفور والنتروجين، وبعد أن تفاعلت هذه العناصر فيما بينها أدى ذلك الى توالد العديد من المركبات الكيميائية، ومن أهمها الماء (H_2O)، وقد عثر على عشرات المركبات الهيدروكربونية في الغبار الكوني، وهي مركبات عضوية تتكون من اتحاد الكاربون والهيدروجين والأوكسجين بنسب معينة، ويعد الماء المركب الأهم الذي لولاه لما كانت هنالك حياة على سطح هذا الكوكب! فأجسام الكائنات الحية كافة تحتوي على ما بين ٧٠٪ -٩٥٪! ولعل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ في سورة الأنبياء: الآية ٣٠ إشارة الى ذلك، وللماء خواص مهمة جدا في الحياة، فهو جزيء يتركب من ذرتي هيدروجين وذرة أوكسجين واحدة، ترتبط هذه الذرات فيما بينها بطريقة فريدة تسمح بوجود طرف سالب الشحنة على سطح الجزيء وطرف آخر موجب الشحنة،

ومثل هذا الجزيء يطلق عليه اسم (جزيء مُستَقطَب)، وبالتالي تتكون روابط كهروكيميائية -تسمى (الروابط الهيدروجينية)- بين جزيئات الماء من خلال انجذاب الطرف السالب لجزيء الماء الى الطرف الموجب في الجزيء الآخر، وهكذا يكون لكل جزيء آصرتان أو رابطتان مع بقية الجزيئات، بما ينتج للماء خواصّه الرائعة التي لا تتوافر في غيره من المركبات الأخرى المماثلة له كيميائيا، كما في كبريت الهيدروجين (H_2S) الذي يشبه الماء في اتحاد ذرتي هيدروجين مع ذرة كبريت واحدة، إذ تتعادل الشحنتان السالبتان لعنصر الكبريت مع الشحنتين الموجبتين لذرتي الهيدروجين، وبذلك يكون المركب غير مستقطب ولا توجد على سطحه شحنات كهربائية، وبالتالي لا تتجاذب جزئياته فيما بينها، فيبقى على حالته الغازية.

وخاصية الاستقطاب لجزيئات الماء أو الروابط الهيدروجينية لها أهمية كبرى في المحافظة على الحالة السائلة للماء، كما أن وجود الأملاح الذائبة في الماء يكون في حالة متأينة، أي إنها تحمل شحنات كهربائية ضرورية في جعل هذه الأملاح تقوم بوظائفها على أكمل وجه، كما للخاصية هذه أهمية في قيام جزيئات المادة الحية (الدي أن أي DNA والآر أن أي والبروتينات RNA) بالوظائف المعقدة لها، وهذا كله يُظهر مدى أهمية الماء في الخلايا الحية.

تكوّن الجزيئات الممهدة للحياة: (DNA) و(RNA) و(البروتينات)

يرى التطوريون أنه بعد نشأة الأرض قبل ما يقرب من ٤,٥ مليار سنة لم يكن للأرض غلافٌ جوي يحميها من ظروف الفضاء المضطربة آنذاك، لذلك طرأت على الأرض أربع ظواهر قاسية استمرت ملايين السنين، وهذه الظواهر هي:

١. إمطار الأرض بأعداد غزيرة من النيازك والكويكبات الصغيرة.

٢. تجمد كثير من المواد التي كانت على سطح الأرض بعد أن كانت على الهيئة الغازية.

٣. توفر الأوكسجين في جو الأرض بعد غياب طويل.

٤. تعرضت الأرض الى نوعين من الأشعة: الأول: قصيرة الأمواج كالأشعة البنفسجية التي لها أهمية كبيرة في تكسير الجزيئات الكبيرة الى جزيئات أصغر وتزيد من فعاليتها التفاعلية الكيميائية، أما النوع الثاني من الأشعة فهي ذات الأمواج الطويلة، كالأشعة تحت الحمراء، ولهذه

الأشعة تأثير حراري قامت من خلاله بتسخين ما عُرف بـ (الحساء البدئي)، مما أوجد تسهيلا لحدوث التفاعلات الكيميائية.

وبهذين النوعين من الأشعة حدثت آلاف من التفاعلات الكيميائية التي حصل نتيجتها تكوين مركبات مهمة في الحياة، منها سكر الريبوز والقواعد النيتروجينية، فيما بعد ارتبطت جزيئات سكر الريبوز من أحد طرفيها بالقواعد النيتروجينية، أما الطرف الآخر فقد ارتبط بمجموعات الفوسفات، ومجموعات الفوسفات هذه أذابتها الأمطار الحمضية من الصخور، فتكوّنن نتيجة لذلك جزيئات النيكلوتيدات، ثم اتحدت هذه الجزيئات فيما بينها على هيئة سلاسل من الأحماض النووية، لتنتج لنا جزيء الـ RNA ثم جزيء الـ DND.

وبظروف معينة من الأشعة الموجية الطويلة والقصيرة والأشعة الكهربائية، أدت الى تكوين عدد من الأحماض الأمينية، بعدها قام الـ RNA بعمل مهم، إذ ربط الأحماض الأمينية بعضها ببعض منتجا البروتينات. ومن كل ما سبق يمكننا القول إن اعداد المسرح لنشوء الحياة على أرضنا الجميلة احتاج من الناحية البيولوجية الى توفّر ستة أشياء متضافرة فيما بينها، وهي:

١. جزيئات الماء المستقطبة كهربائيا، ذو طرف سالب الشحنة

وآخر موجب الشحنة.

٢. الكربون ذو الروابط الكيميائية الأربع اللينة، وهي تسمح باتحاده مع ذرات الأوكسجين والهيدروجين والنيتروجين وذرات الكربون الأخرى، فينتج مركبات عضوية ذات جزيئات كبيرة.

٣. مجموعة الفوسفات اللازمة لتكوين جزيئات النكلوتيد.

٤. المركبات العضوية الأخرى المكونة للحساء البدئي، ولا سيما الفورمالدهيد، وحمض السياندريك، وهي مركبات مهمة في تكوين المادة الحية.

٥. مصدر الطاقة المتمثل بالأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء والشرارات الكهربائية.

٦. الجو الفقير للأوكسجين، الذي ساد عندما بدأت الحياة، مما سمح باستقرار الجزيئات العضوية الجديدة وعدم تأكسدها.

ومما يجدر بنا ذكره أن امكانية تكوين الجزيئات العضوية الكبيرة من هذه المكونات الأولية بالصدفة تصل الى حد الاستحالة!! فليس مجرد اجتماع هذه المركبات واجتماعها كاف لأن تتشكل الخلية، فلو نظرنا الى جزيء واحد من البروتينات، ولنأخذ الهيموغلوبين مثلا، نجد أن هذا البروتين يحتوي على ٥٣٩ حمضا أمينيا، تمثل تكرارا للعشرين نوعا من

الأحماض الأمينية التي يحتوي عليها جسم الانسان، وبعملية حسابية بسيطة نجد أن الترتيبات المحتملة التي يمكن أن تترتب فيها تلك الأحماض الأمينية لتكون هذا البروتين يعادل الرقم ١٠ أس ٦٢٠!!! غير أن ترتيبا واحدا هو المطلوب لتكوين هذا الجزيء البروتيني، الذي له دور في نقل الأوكسجين من رئة الانسان الى باقي الجسم عن طريق الدم، وإن وجود خطأ واحد بسيط يجعل هذا البروتين فاقدا لوظيفته، أو ربما يعمل اختلالا يؤدي الى نتائج خطيرة!

إن عملية تكوين البروتين في الخلية عملية معقدة وصعبة جدا جدا، فبعد أن تتراص الأحماض الأمينية وتترتب وفق ترتيب محدد لتكون السلاسل الببتيدية، تأتي أهم عملية في خلق جزيء البروتين، وفيها تلتف هذه السلاسل بعملية بالغة التعقيد، فلو وضعت المعلومات المطلوبة للف سلاسل جزيء من البروتينات يتكون مثلا من مئة حمض أميني مثلا في سوبر كمبيوتر ليقوم بهذه العملية بمحاولات عشوائية، فإنه سوف يستغرق ما يقرب من ١٠ أس ١٢٧ سنة!! على أن تلك العملية تتم في الخلية في جزء ضئيل من الثانية!! وأقل خطأ في تلك العملية البالغة التعقيد يمكن أن تؤدي الى خطر مميت!

وبناء على ما ذكر فإن إمكان تكوّن جزيء من البروتين صدفة

يتطلب مادة يزيد مقدارها بليون مرة على المادة المتوافرة في أنحاء الكون كله! حتى يمكن للتوافقات العشوائية المثمرة أن تحدث، وتستغرق تلك المحاولات مدداً طويلة جدا تتجاوز عمر الكون!! نعم فهي تحتاج الى ما يقرب من ١٠ أس ٢٣٤ سنة!! وفوق ذلك فإن تلك العمليات تحتاج الى مسرح وميدان كي تتم فيه يبلغ امتداده ١٠ أس ٨٢ سنة ضوئية!! وهذا المقدار لا يستوعبه حجم الكون كله!!!

كيف تكوّنت الخلية الحية؟

يذهب العلميون الطبيعيون الى أن الخلية الأولى بدأت في الحياة منذ ما يقرب من ٣,٧ مليار سنة في أعماق المحيطات، إذ اُكتُشفت مؤخرا كائنات دقيقة تشبه أسلاف البكتريا التي توجد اليوم في عالمنا، وربما بدأت الحياة على سطح الأرض بجوار المحيطات في جو مختزل غني بالهيدروجين وخال من الأوكسجين، إذ إن وجود الأوكسجين يؤكسد المركبات المُخلّقة أولا فلا يسمح بتكوين الجزيئات العضوية الكبيرة.

إن الخطوة المهمة في نشأة الحياة في شكلها الحالي تتمثل في الحصول على جزيء قابل للتوالد الذاتي، وهذا الجزيء هو (الدي أن أي DNA)، غير أن الأمر ليس بالسهولة هذه، فهذا المركب أو الجزيء بالغ التعقيد والصعوبة، ويحتاج لكي يؤدي عمله كشفرة وراثية الى مساعدة الانزيمات (بروتينات)، وهو ما يقودنا الى حالة شبيهة بحالة البيضة والدجاجة، أيهما أسبق؟! فلكي نحصل على بروتينات لابد من توافر (الدي أن أي)؛ كي يستطيع أن يشفّر لبنائها، ولكن في الوقت نفسه لابد من توافر البروتينات (الانزيمات) كي يؤدي (الدنا DNA) عمله

على الوجه الذي ثبت علميا!! وقد وضع الباحثون العلميون عددا من النظريات العلمية للخروج من هذه الإشكالية.

وهنالك عدد من السيناريوهات التي طُرحت لتفسّر تلك الحالة المشكل، وأرجحها هو تراص النيكلوتيدات على سطح بلورات الصلصال بفعل الشحنات الكهربائية، ثم اتصال بعضها ببعض لتكوين جزيء (الرنا RNA)، ولبلورات الصلصال دور آخر في نشأة الحياة، فالمركبات الكربونية حديثة التكوين كان يتم امتصاصها على سطح الصلصال (خاصية الامتزاز) بما يسمح باستمرار التفاعل في اتجاه تكوين مركبات جديدة، ولا يصبح التفاعل عكسيا، ويشبه (الرنا) في هذه المرحلة الفايروسات من ناحية تكوّنه من تتابع النيكلوتيدات، مع اختلافه عنها في حاجته الى الخلية الحية المضيفة التي يتكاثر الفايروس عن طريقها، لذلك أطلقت عليه النظرية اسم (أشباه الفايروسات)، وللحصول على الطاقة اللازمة للتكاثر قام جزيء (الرنا) بتحليل المواد العضوية الموجودة في الحساء المحيط، فكونت بعض أشباه الفيروسات غشاء حولها لتخزن فيه المواد الغذائية الضرورية للحياة، وبذلك نشأت أول كائنات حية وحيدة الخلية وبدائية النواة (بروكاريوتات)، وهي تعتبر المرحلة الأولى لنشأة الكائنات الحية على الأرض.

فيما بعد تطوّرت البروكاريوتات التي هي الكائنات الوحيدة الخلية والبدائية النواة، ونتج عن هذا التطوّر الخلايا (اليوكاريوتية) ذوات النواة، وحصل هذا التطور منذ ما يقرب من ٢,٧ مليار سنة، والسيناريو الأقرب الى الواقع -بحسب العلم الحديث- في تكوّن هذه الخلايا أنها قد انبثقت من اتحاد أنواع مختلفة من البروكاريوتات تبعا لنظرية التعايش الداخلي، التي توصّلت إليها عالمة البيولوجيا الأمريكية لين مارجوليس عام ١٩٦٧. وتذهب هذه النظرية الى أن الخلايا البروكاريوتية اللاهوائية قامت بالتهام الخلايا البروكاريوتية التي اكتسبت القدرة على التمثيل الضوئي، فأصبحت بداخلها بمثابة الكلوروبلاستات الموجودة بالخلايا النباتية، وكذلك قامت بعض الخلايا اللاهوائية الأخرى بالتهام خلايا هوائية أصبحت بداخلها بمثابة مايتوكوندريا توجد بداخل الخلايا الحيوانية، وبذلك اكتسبت الخلايا اللاهوائية القدرة على التعامل مع الأوكسجين المميت بالنسبة إليها، وفي الوقت نفسه وجدت الخلايا الملتَهَمَة الحماية والغذاء من الخلايا التي التهمتها، فصارت بذلك الفائدة متبادلة، لذلك سُمّيت النظرية بنظرية التعايش الداخلي.

أما المادة الجينية (الوراثية) والمعروفة بـ (DNA) لبعض تلك

البروكاريوتات داخل نواة واحدة من أجل تنظيم انقسام الخلية، هذا ماعدا المادة الوراثية للمايتوكوندريا والكلوروبلاست فإنها بقيت خارج النواة، ونتيجة لذلك فقد تحول عدد من البروكاريوتات الى خلية واحدة من الخلايا حقيقية النواة (يوكاريوتات)، وهي المرحلة الثانية من مراحل خلق الخلية.

ويرى العلماء والباحثون حول نشأة الحياة أن من المرجح أن تكون الكائنات الحية المبكرة بقيت تستعمل الـ (RNA) كشفرة جينية في كروموسومات في خلاياها لمدة طويلة تقرب من ٥٠٠ مليون سنة، وتسمى الكائنات في تلك المدة بعالم (RNA)، غير أن هذا العالم بدأ بالاضمحلال شيئا فشيئا حتى اندثر وانقرض بسبب هشاشة جزيئات (الآر أن أي)، بيد أن هذا العالم ترك لنا بعضا من تلك الجزيئات التي كان لها دور في بيان السيادة التي تمتع بها الـ (RNA) في تلك الحقبة الساحقة في القدم، وهذا الشيء واضح من خلال ما موجود في خلايا أجسادنا من ريبوسومات.

وحدث لاحقا بعض التعديلات على جزيئات (RNA)، إذ تم نزع ذرة الأوكسجين من هذا الجزيء، بما أدى الى تكوين جزيء الـ (DNA)، الذي يتكوّن من سلاسل مزدوجة أطول كثيرا، تصل الى

ملايين النكلوتيدات، ويستطيع أن يخزن المعلومات بآلية أكثر إحكاما ودقة، كما أنه أكثر قدرة على التناسخ لخاصية الازدواج التي هو عليها، وهو أكثر ثباتا من جزيء الـ (RNA)، ومنه نشأت الكروموسومات في الخلية، التي تحتوي على النمط الوراثي لأغلب الكائنات التي وجدت في عالم الـ (DNA)، الذي يعود عمره حسب أقدم حفرية بكتيرية تألفت مادتها الوراثية من هذا الجزيء الى ما يقرب من ٣,٧ مليار سنة.

ولا يفوتنا أن نذكر أن أقدم حفريات للكائنات اليوكاريوتية يعود الى ما يقرب من ١٤٠٠ مليون سنة التي كانت تعود الى نوع معين من الطحالب، في حين ذهبت الأبحاث الكيميائية الى أن عمر هذه الكائنات يعود الى ما يقرب من ٢٧٠٠ مليون سنة.

أهمية الخلايا البروكاريوتية (الفاقدة للنواة)

حتى الربع الأخير من القرن العشرين كان الاعتقاد السائد بين العلماء هو أن النوع الوحيد من الكائنات وحيدة الخلية بدائية النواة هي البكتريا، غير أن فريقا من العلماء استطاع فيما بعد أن يكتشف أن هنالك نوعا من الخلايا لا توجد داخلها نواة!

وعلينا أن لا نغفل عمّا توصل إليه العلماء البيولوجيون في مسألة الخلايا البدائية، التي كان يُعتقد فيما مضى بأن الخلايا الأولية القديمة التي أتت منها كل الكائنات هي البكتريا، لكن فيما بعد وتحديدا في منتصف سبعينيات القرن المنصرم اكتُشف أن هنالك نوعا من الخلايا البكتيرية القديمة البدائية النواة سموها بـ (الآركيا)، وقد تفاجأ الفريق البحثي بأن هذه الخلايا تختلف عن غيرها من الخلايا البكتيرية، وأن هذه البروكاريوتية تحتوي على بعض الجينات التي تشبه الى حد ما جينات البكتريا، وفيها بعض الجينات الأخرى تشبه جينات الإنسان، وتحتوي أيضا على بعض الجينات التي تشبه جينات الخلايا ذوات النواة (اليوكاريوتات)، وهي

بالإضافة الى ذلك تحتوي على جينات خاصة بها وحدها، وثبت أيضا أن بنيتها الكيميائية وطرق عمليات الأيض التي تجري فيها تختلف عما في البكتريا، بيد أنها أقرب الى خلايا ذوات النوى. وهذا يعني أن البكتريا القديمة التي كانت فيما مضى تصنف كأحد أنواع البكتريا هي اليوم مجموعة من البروكاريوتات التي تختلف تماما عن البكتريا، بالرغم من التشابه الكبير بينهما تحت المجهر.

ويعتقد كثير من العلماء البيولوجيين أن الآركيا هي حلقة الوصل بين الحياة وعدم الحياة، وهي التي أول ما بدأت العيش على الأرض لما لها من امكانية في تحمل الظروف الصعبة، فهنالك أنواع منها تعيش في أماكن توحي بأنها ربما كانت تعيش على الأرض حينما كانت درجات الحرارة فيها عالية ولا يوجد فيها أوكسجين وما الى ذلك، فهنالك أنواع عدة استطاع العلماء أن يكتشفوها، ووجدوا أنها تعيش في ظروف تشبه الظروف الصعبة التي نشأت فيها الأرض، ومن هذه الأنواع:

١. الآركيا المنتجة للميثان: وهذه الآركيا عبارة عن كائنات لا هوائية نشأت قبل أن ترتفع نسبة الأوكسجين في الأرض، وتعيش الآن هذه الآركيا في الجهاز الهضمي للحيوانات وفي أعماق المحيطات.

٢. الآركيا المحبة للملح: وهي التي تعيش في المناطق المالحة التي

ليس من عادة الكائنات الأخرى أن تعيش في مثل هكذا مناطق، كما هو الحال في الآركيا التي تحيا في البحر الميت ذي التركيز العالي للملح.

٣. الآركيا التي تحب الحرارة: وهي التي تعيش في المناطق الحارة جدا كتلك التي تعيش في فوهات البراكين تحت الماء، والتي تتحمل درجات عالية من الضغط التي يزيد عن الضغط الجوي بأكثر من ٢٥٠ مرة!!

وقد مال كثير من البيولوجيين من خلال دراسة التاريخ التطوري للكائنات الحية إلى أن البكتريا والآركيا لهما أصل واحد مشترك، أي أن سلفهما واحد، وذهبوا الى أن السلف المشترك للخلايا ذوات النوى -وهي التي تعود لكل الكائنات الحية الأخرى-متفرع من الآركيا وليس من البكتريا! وقد احتار العلماء في أنه هل الآركيا أو البكتريا الخضراء (السيانوبكتريا) هي أصل الكائنات والتي أتت منها الحياة. والسيانوبكتريا وجدت لها حفريات في أستراليا تعود الى ما يقرب من ٣٥٠٠ مليون سنة تقريبا، وهي ما زالت الى الآن تحيا معنا على أرضنا الجميلة، وهي تحتوي على الصبغة الزرقاء التي يعتقد العلماء أنها هي من أمدت الأرض بالأوكسجين، وهي المسؤولة عن رفع نسبته التي كانت ١٪ فارتفع نتيجة لها الى ٢١٪ بعد أن استمرت بعملية التمثيل الضوئي على مدى ٢٠٠٠ مليون سنة تقريبا.

نشأة الكائنات الحية متعددة الخلايا (وفق الرؤية الدارونية)

يذهب معظم علماء البيولوجيا الى أن أول ظهور للكائنات متعددة الخلايا منذ حوالي ٨٠٠ مليون سنة تقريبا، ويصل عدد الخلايا في الحيوانات متعددة الخلايا الى عشرات آلاف المليارات خلية، كما في عدد خلايا جسم الانسان! بل يصل الى أضعاف هذا العدد مرات عديدة كما في عدد خلايا جسم الحوت العملاق! وهذه الخلايا تعمل في تناسق تام وتعاون وهدفية موحدة بين الجميع ولا يوجد بينها تقاطعات أو ما شاكل ذلك من الأمور التي من الممكن أن تقع بين أفراد الدائرة الواحدة! كل ذلك يجري لمصلحة الكائن الذي يحتوي على هذه الخلايا.

في بداية الأمر كانت الحيوانات متعددة الخلايا على هيئة بسيطة تتكون من أنسجة طرية كالإسفنج، واستمرت على هذا الحال بما يقرب من ٢٥٠ مليون سنة تقريبا، ثم بدأت فيما بعد تتكون فيها أجزاء صلبة يمكن أن تترك حفريات كالأصداف والهياكل العظمية، وتلاه لاحقا ما يسمى بالانفجار الأحيائي الكبير في العصر الكمبري الذي حدث

منذ ما يقرب من ٥٤٠ مليون سنة، وسمي بعصر الكمبري نسبة الى مرتفعات كمبري في ويلز التابعة للملكة المتحدة البريطانية حيث وجدت أولى حفريات هذا العصر، وفي هذا العصر تكونت معظم الحيوانات المعروفة لنا اليوم خلال مدّة زمنية تتراوح بين ٥ -١٠ مليون سنة، وهي مثل لمحة بصر قياسا لطول التاريخ التطوري! وقد انقرض ما يقرب من ٩٠٪ من كائنات ذلك العصر ولم يعد لها وجود!

وكل كائن حي متعددة الخلايا له طوران من التطوّر، طور أتى من خلية واحدة (بويضة مخصّبة)، ثم بدأت تنقسم انقسامات متتالية متصلة، وبدأ قسم من الخلايا بالتخصص للقيام بمهام معينة ووظائف مرسومة، حتى نصل الى جنين متكامل شكلا ووظيفة، بعدها يستمر بالنمو الى ان يصل الى النضج، والطور التطوري الآخر كان بمعية الكائنات متعددة الخلايا الأخرى، إذ إنها جميعا أتت -حسب التطوريين- من كائن وحيد الخلية، وبتوافر بعض العوامل انقسمت هذه الخلية ليأتي كائن ثنائي الخلية وهكذا حتى وصلنا الى كائنات عملاقة متعددة الخلايا، وتستغرق عملية التطور الأولى بضعة شهور على الأغلب، بينما استغرقت العملية التطورية الثانية مليارات وملايين السنين حتى وصلت الكائنات الى ما هي عليه الآن.

نظريات أصل الحياة

تعددت الآراء والأقوال حول نشأة الحياة على الأرض، فكيف تحولت المادة غير الحية الى مادة حية، ومتى انبعثت الحياة في تلك المادة وكيف، ومما يجدر بنا ذكره أن دارون لم يتحدث عن الأصل الأولي للحياة ومن أين أتت الحياة لأول كائن وجد على الأرض، لكن هذا الشيء أتى لاحقا وأضيف الى نظرية التطور، وقد تحدثنا سابقا عن الكيفية التي تكونت فيها الخلية الحية، وتمثل النظرية الأكثر قبولا في الأوساط العلمية البيولوجية، وهنالك نظريات أخرى تفسّر نشأة الحياة، وهي:

أولا: نظرية التوالد الذاتي:

تذهب هذه النظرية الى أن الكائنات الحية ربما أتت من خلال توالدها الذاتي، وذلك اعتمادا على ما لاحظوه من ظهور للكائنات الدقيقة على الأطعمة، مثل ظهور الديدان والمجهريات والفطريات على الخبز واللحوم وما الى ذلك من الأغذية الرطبة، فقالوا بأن الظروف

المناسبة والرطوبة ممكن أن تجري تفاعلات للعناصر فينتج عنها كائنات حية دقيقة، في عملية مشابهة لتلك التي ابتدأت بها الحياة قبل أكثر من أربعة مليارات سنة! وأطلقوا على هذه النظرية نظرية التوالد الذاتي، وظهرت نتيجة لذلك نظريات تفسر هذه العملية مثل نظرية (أوبارين)، ونظرية (برنال) وغيرها من النظريات التي تذهب في الاتجاه نفسه، غير إن العلماء وجهوا لهذه النظريات عدة مثالب وإشكاليات لا يمكن التغلب عليها أو ردُّها، وهي:

أ- نشأة الحياة كانت أول ما ابتدأت في الماء وليس على اليابسة.

ب- يُعدُّ الطين البيئة المناسبة لبدء الحياة لتوافره على المواد والعناصر المناسبة لعمليات التفاعل وكونه بيئة مناسبة أيضا لتلك التفاعلات.

ج- هذه النظريات فرضت أن هنالك طاقة منبعثة من مصادرها (بروق وإشعاعات شمسية) كان لها دور في إحداث التفاعلات التي أدت الى نشأة الحياة..

ويوضح صاحب كتاب (قصة الحياة ونشأتها على الأرض) الأسس والخطوات التي نتجت عنها الحياة فيقول: «وضع العلماء فروضًا أساسية ثلاثة لنظرية نشأة الحياة وهذه الفروض هي:

١. تكوين مواد عضوية بسيطة التركيب مثل الغازات

الهيدروكربونية ومشتقاتها النتروجينية من مواد غير عضوية بسيطة كخطوة أولى أساسية في نشأة الحياة.

٢. تحويل هذه المواد العضوية البسيطة إلى مواد عضوية أكثر تعقيدًا من نوع تلك المواد التي تتميز بها المادة الحيَّة، مثل البروتينات والأحماض الأمينية والدهنيات والبورفيرينات.

٣ـ تجميع جزئيات هذه المواد العضوية المُعقَّدة لتبني أنظمة أكثر تعقيدًا، قادرة على القيام بالتفاعلات الكيميائية وقادرة أيضًا على الانقسام، مثلما تجده في الكائنات الحيَّة الأولية».

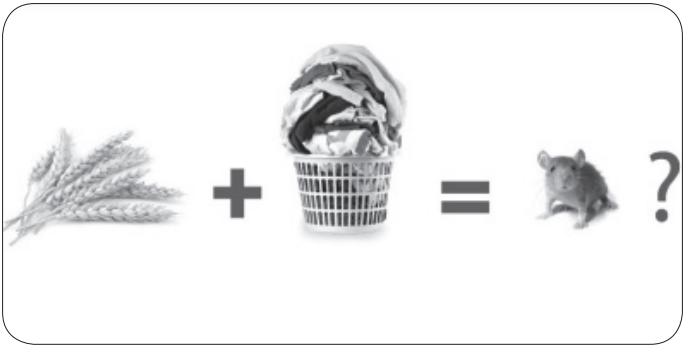

(صورة توضح نظرية التوالد تالذاتي)

ثانيا: نظرية الحساء البدئي:

تصور دارون أن الحياة نشأت من خلال بركة صغيرة دافئة تحتوي

على العناصر الخاصة بالكائنات البدائية، وجرت جدلية حول هذه النظرية بين مناصر لها ومعارض، لكن هنالك اشكالاً كبيراً يواجه هذه النظرية يقول: من منا يعلم ما إذا كانت الأرض فعلا تحتوي على هذه العناصر قبل ثلاثة مليارات سنة، وهل يمكن اثبات ذلك؟ يبقى الأمر مجهولا ولا نستطيع أن نبني النظريات على المجهول!

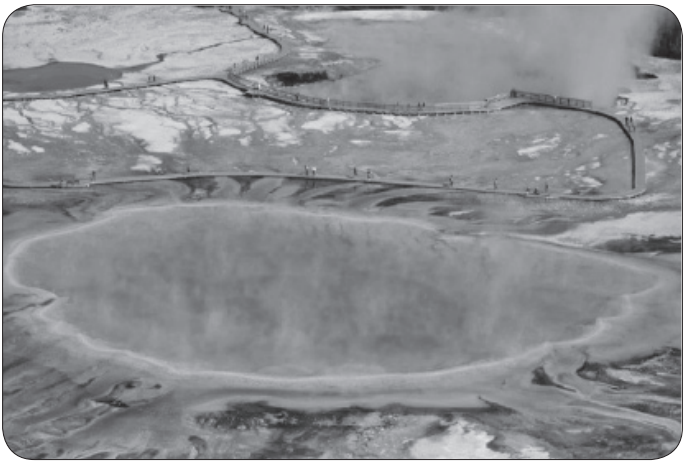

(صورة تمثيلية لبركة الحساء البدئي)

ثالثا: نشأة بمراحل + الصدفة والعشوائية:

بعدما تيقن العلماء من التعقيد المذهل للخلية لجأ التطوريون الى تقسيم المشكلة الى مراحل عدة، عسى أن يجدوا حلا لكل مرحلة، إذ

طرح العالم البيولوجي الروسي ألكسندر أوبارين عام ١٩٢٤ فرضا بنشأة الخلايا تدريجيا، عن طريق التفاعلات الكيميائية التي على اساسها تكونت المادة الحية من المادة غير الحية! في البدء تكونت المواد العضوية من المواد الكيميائية الغازية المتوافرة في جو الأرض، ومن خلال الطاقة الشمسية والبرق تراصت هذه المركبات وتفاعلت لتنتج لنا مركبات أكثر تعقيدا حتى تكونت البروتينات! وهذه البروتينات هي الأخرى تطورت حتى حصلنا على (الآر أن أي) ثم (الدي أن أي)! ثم بعد ذلك توصلنا الى الخلية الحية!!

وادعى أنصار هذه النظرية أن (ميلر ويوري) استطاعا أن يصلا إلى نتائج باهرة في إثبات هذه النظرية! إذ قاما بإجراء تجربة تقوم على توفير بعض العناصر المهمة في عملية البناء العضوي، مع توفير ظروف مشابهة لظروف النظرية من تفريغ كهربائي وما إلى ذلك، وقد استطاعت هذه التجربة -حسب هؤلاء- أن توّفر بعض المواد العضوية الضرورية لعملية النشأة الحياتية! فحضر يوري مواد وأحماضاً أمينية من مواد غير عضوية معمليا! واعتبر هؤلاء أن الفيروسات ما هي إلا مرحلة وسيطة بين عالمي الجماد والحياة، وقد قال (هيجل) في هذا الصدد: «اعطني هواء ومواد كيميائية ووقتا، وأنا أعطيك إنسانا»!

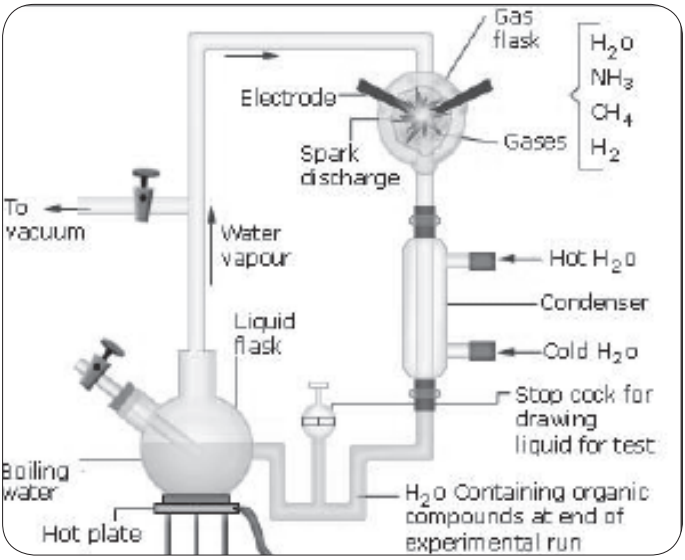

(شكل توضيحي يبين آلية تجربة ميلر ويوري)

رابعا: نظرية انتشار البذور:

تذهب إحدى النظريات الى أن الحياة ربما نشأت عن طريق بذور الحياة التي جلبتها كائنات فضائية!! أي إن الحياة لم تنشأ على الأرض بداية وأصلا، وإنما قام الفضائيون بجلبها من الكون الخارجي الى الأرض!! وهنا يثور السؤال نفسه: كيف بدأت الحياة في النظام الخارجي والفضاء؟!

(شكل يوضح نظرية انتشار بذور الحياة)

خامسا: نظرية الشواطئ المشعة:

ادعى بعض العلماء أن القمر بجاذبيته القوية عندما كان قريبا من الأرض قبل مليارات السنين قام من خلال الجاذبية بتركيز اليورانيوم على الشواطئ المائية، وطاقة الإشعاع هي من ساعد على ولادة الجزيئات العضوية، وصارت عاملا مساعدا حفّز على الحياة.

الفصل الثالث

اشكاليات النظرية التطورية

ومابني عليها

التعاون بدل التنازع!

من مبادئ النظرية الداروينية هو الصراع من أجل الحياة، ذلك المبدأ الذي يعني أن الكائنات الحية في حالة من الصراع والتنافس فيما بينها حتى يسود فيها القوي على حساب الضعيف، ويذهب الضعيف الى الاندثار والانقراض، أي إن كثيرا من الوصلات والحلقات الوسيطة بين الأنواع -بحسب الفرض الداروني- انقرضت بفعل هذا المبدأ، أما الأنواع التي نراها اليوم في الواقع سادت وصمدت وما زالت على ساحة الوجود.

ويأخذ الانتخاب الطبيعي دوره الموكول له في العملية التطورية، إذ إن تزايد أعداد هذه الأحياء عن القدر المتوازن أو التنافس على الغذاء يشعل الصراع بين هذه الكائنات، والبقاء للأقوى والزوال للضعيف، والقوي هنا لا نقصد منه القوي جسدا كما قد يفهم البعض، وإنما نعني بالقوي ههنا ذلك الكائن المتكيف مع الظروف التي يعيش فيها، مثلما نجد مثلا في البعوض الذي يستطيع العيش أكثر من غيره من الحشرات في مناطق المستنقعات الرطبة.

لكن من يتمعن في هذا العالم الحياتي على الأرض يجد العكس تماما، إذ إن الكائنات في حالة من التعاون والتكامل وتبادل الخدمات، بل حتى تلك التي يبدو فيما بينها علاقة قائمة على الافتراس والقتل فهي أيضا تشارك من حيث لا تعلم بعملية التوازن الحياتي، وهي تخضع جميعا لنظام من التوازن البيئي الذي يحافظ على النسبة الثابتة بين الجميع، فمثلا إذا ارتفعت نسبة القوارض عن نسبة الصقور أو العكس تحدث نتائج في غير مصلحة البيئة وبالتالي في غير مصلحة الانسان والعالم أجمع!

وهذا التصارع الـداروني المزعوم إنما يجري بين الأنـواع وأيضا داخل النوع الواحد، وهذا زيادة على الصراع مع البيئة التي يعيش فيها الكائن والتي ربما هي من تتحكم في استمرارية بقائه من عدمه، وصار المفهوم السائد لدى غالبية الدارسين أن الكائنات الحية في حالة حرب عالمية مستمرة ودائمة لا وقوف لها! وكل فرد لا يهتم إلا بمصالحه الشخصية، فالأنانية هي الحاكمة على الجميع، وهو ما يعني أن كل مساعدة نشهدها بين الكائنات أو أي منفعة متبادلة بينها تشكل ضربة للنظرية الدارونية ككل، وهذا الإيثار والتعاون بين الكائنات المشتركة بالنوع يمكن ملاحظته مع كثير من الحيوانات التي لا تستطيع

أن تعيش منعزلة بعضها عن بعض، فهي مجبولة على العيش ضمن بيئة مجتمعية على شكل عشائر وقطعان، فالإنسان والذي نحن ننتمي إليه يشكل المثال الأبرز للتعاون والإيثار، ولا حاجة لبيان أمثلة تعاونية أو إيثارية فهي أكثر من أن تعد، أما الحيوانات فكثير منها يعيش على شكل مجموعات عشائرية، حتى الكلاب يمكن ملاحظة هذا السلوك عليها بوضوح، ومن خلال مشاهدتنا للتقارير العلمية عن الحياة البرية في قناة (ناشونال جيوغرافيك أبو ظبي) نلحظ كثيرا من تلك الحيوانات تعتمد على استراتيجية الدفاع المشترك، عن طريق التجمعات ومواجهة الأخطار بشكل جماعي، كما في حالة الجاموس البري عند مهاجمة الأسود أو النمور فإن الذكور الأقوياء يكوّنون دائرة تحيط ببقية الجواميس الأضعف. كما يمكن ملاحظة الغزلان بتجمعها قطعانا عندما تريد التنقل من مكان الى آخر أو عندما تعبر الأنهار، وهذا السلوك ينطبق على الحشرات كما في المستعمرات النملية والخلايا النحلية وغيرها.

إننا نرى أن دورة الحياة على هذه الأرض إنما تقوم على تبادل العطاء، فمثلا في مسألة الأوكسجين وثاني أوكسيد الكربون يأخذ النبات ثاني أوكسيد الكربون ويعطي الأوكسجين، بينما تقوم الحيوانات عكس ذلك تماما، إذ تأخذ الأوكسجين وتعطي ثاني أوكسيد الكربون، وغير ذلك

مما لا يحصى من قضايا التعاون بين الكائنات الحية، بل هنالك تعاون ربما لا يعقله البعض! نعم تعاون بين الإنسان والبكتريا التي تعيش داخل جسمه! بل هناك تعاون ولا مبالغة بين الكائنات والجمادات الأخرى في هذا العالم، تعاون مع التربة والبحار والجو والسماء! والأمثلة لا تنتهي لمن أراد أن يستمر في عدها، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على التصميم الذكي من قبل من أوجد هذا الخلق والعالم.

وبعد أن أثيرت هذه الإشكالية حول النظرية التطورية لجأ أنصارها الى تكييفها وتعديلها لجعلها تلائم ما هو مشاهد ومحسوس من تعاون وإيثار بين الكائنات!! نعم فقد رتب هؤلاء وألفوا الكتب والبحوث التي جعلت من التعاون عنصرا أساسيا من عناصر التطور كالصراع تماما!! فجعلوا من النظرية بوتقة جامعة بين المتناقضين!! ومن أراد أن يستزيد فليرجع الى كتاب (الجين الأناني) للمؤلف الإنكليزي المثير ريتشارد دوكنز، حامل لواء الداروينية الجديدة، التي غيرت من بعض حيثياتها لتكون بمأمن من مطبات النقض المستجدة يوم بعد يوماً ضد هذه النظرية التطورية.

من أين أتى البروتين؟

لقد قام الإلحاد قبل أكثر من قرن وما زال على فكرة التطور الدارونية! بل يمكن أن تُعد هذه النظرية حجر الزاوية للإلحاد الحديث والمعاصر! وبالتالي فإن نقض مبادئ هذه النظرية وأصولها ومضامينها يعني نقض الإلحاد وهدمه من أساسه، وربما سيرد في هذا الفصل كلام يهدم ما أورد في الفصل الثاني عند الحديث عن نشأة الأرض ونظرياتها، ففي ذلك الفصل كان الحديث حسب ما ذهب إليه التطوريون، مع بعض التعليقات التي نقدت ما ذهبوا إليه في تصوراتهم. ويعد البروتين من أبرز الأشياء التي يمكن من خلالها نقض النظرية التطورية.

انتقد عالم الرياضيات والبيولوجيا الجزئية والفلسفة (ديفيد برلينسكي) الملحدين التطوريين الذين اعتمدوا على النظرية الدارونية في نشر إلحادهم المقيت، الذي لا يعدو أن يكون وهما من الأوهام التي لا أصل لها! وهو قد جنح الى هذا الشيء بعدما وجد أن هؤلاء قد عملوا على تزييف الحقائق ونشر الأكاذيب والتزييف والغش على مدى عقدين من الزمن بقيادة كبيرهم الذي علمهم السحر (ريتشارد

دوكنز)! وكان (برلينسكي) كثير السخرية من هؤلاء، حتى ألف كتابا في الرد عليهم أسماه (وهم الشيطان) في العام ٢٠٠٩. وهذا الكتاب جاء ردا على عنوان الكتاب الإلحادي الذي قام به (ريتشارد دوكنز)، الذي كان يحمل عنوان (وهم الإله)، وعبارة (وهم الشيطان) تحمل بين حروفها وثناياها إهانة مدوية أطلقها المؤلف تجاه (دوكنز)، مشبها إياه بالشيطان!

وقد ذهب (برلينسكي) الى أن البروتين يشكل العقبة الأكبر في طريق التطوريين الذين لا يستطيعون أن يفسروا لنا الطريقة التي يصنع فيها البروتين! فهذا الجزيء يعود له سر التنوع الهائل في الكائنات الحية التي يصل عدد أنواعها الى ملايين الأنواع في هذه الأرض، فكل تلك الأشكال والألوان والروائح وتراكيب الكائنات وما الى ذلك كله ذلك يعود الى البروتين! فهو أعظم مكونات الجسم شأنا، والعلماء ما زالوا حائرين بتشكلاته المذهلة عددا وتنوعا! فهناك بروتينات تدخل في بناء خلايا الحيوانات كخلايا الجلد والعظم واللحم والشعر والريش والأظافر والغضاريف والقلب والكبد والعين وغير ذلك، وهنالك بروتينات موجودة في ثمار النباتات وبذورها وأزهارها، كما أن هنالك بروتينات تقوم بالعمليات الكيميائية والحيوية داخل الخلايا الحية المختلفة كالإنزيمات والهرمونات التي لا حصر لها.

فالبروتينات عبارة عن منظومة هائلة من التنوع والتباين، وهي متكونة من لبنات تدعى الأحماض الأمينية، وهذه اللبنات لا يتعدى عددها العشرين لبنة! وهي يتجمع بعضها مع بعض لتكوّن في النهاية البروتينات المتنوعة، التي لكل نوع منها مهمة خاصة ووظيفة معينة، وكل الكائنات لا يمكن لها بحال من الأحوال الاستغناء عنها، وكما يقول (كارل بوبر): (التقدم العلمي غير المسبوق في البيولوجيا جعل مشكلة أصل الحياة لغزا أكبر مما كان عليه قبل ذلك، فقد اكتسبنا مشاكل جديدة وأكثر عمقا).

ومعلوم أن عمر الأرض المفترض هو ٤,٥ مليار سنة، وبداية نشأة الحياة كانت قبل ٣,٧ مليار سنة، والبكتريا عاشت قبل ٣,٥ مليار سنة، وبأخذ الاعتبار بأن القشرة الأرضية لم تتصلب إلا قبل ٤ مليارات سنة، وهذا ما يعني أن الحياة ظهرت على الأرض في حدود ٢٠٠ مليون سنة بعد تصلب القشرة الأرضية، وهذا رقم ضئيل جدا لإمكانية أن تكون هنالك فرصة حياة أولية بظروف طبيعية، وهذا الرقم لا يمكن اعتباره وفق الاحتماليات التي يمكن أن تقع، فوفق القانون الإحصائي الذي صاغه العالم الغربي (اميل بوريل) الذي يناقش به حدود الاحتمالية الرياضية يذكر أن أي حدث تتجاوز نسبة الاحتمالية له ١/ ١٠ أس ٥٠، أي واحد بجواره خمسون صفرا، يمكن

أن نقول عنه إنه حدث لا يمكن له الحدوث بغض النظر عما إذا كان هنالك وقت أو مكان متوافر له أم لا..

وعلى ذلك فإن امكانية الحصول على بروتين بسيط مكون من مئة حمض أميني وفق الاحتمالات الرياضية ووفق الظروف المثالية والكيميائية الجيدة هي نفس احتمالية الحصول على وجه واحد مكرر مئة مرة متتالية للعملة النقدية ذات الوجهين!! وللحصول على الوجه المكرر بتتابع مئة مرة متتالية للعملة النقدية ينبغي علينا أن نرميها بعدد من المرات الحاصل من تكرار ضرب ١٠ في نفسها ٣٠مرة! كحد أدنى متاح للسماح بذلك، أما المدى الزماني الذي تحتاجه هذه العمليات فإنه يتعدى عمر الكون كله!!! وقد أجرى بعض العلماء حسابا لاحتمال تكوين البروتين المتوسط في حجمه، وقد وجد هؤلاء العلماء أن المدة الزمنية اللازمة لتكوين هذا البروتين المتوسط هو ٩ , ٤/ ١٠ أس ١٩١، وهو رقم كبير جدا يتعدى حد الاحتمال الذي قام به بوريل بأضعاف! على الرغم من أن هذا البروتين المتوسط يقف على مسافة شاسعة من التمايز عن النظام المعقد الرهيب الذي تنتظم عليه الخلية!! كما أجرى (فريد هويل) العالم الفيزيائي بمعية استاذ الرياضيات التطبيقية الفلكي (شاندرا يكواماسينغ) حسابا احتماليا للحصول على الإنزيمات الخلوية كمواد خام وفق العمليات الطبيعية، وقد كانت النتيجة مذهلة جدا!

وهي ١/ ١٠ أس ٤٠٠٠٠!!! وهذه النتيجة تعطي الانطباع الجازم بأنه لا يمكن لتلك الانزيمات أن تكون بأي حال من الأحوال!! مما جعل الفيزيائي (فريد هويل) يغير من اعتقاده، وأن الكون لابد له من حتمية في الخلق.. وقد صرح هذا الفيزيائي لإحدى المجلات وهي مجلة الطبيعة في تشرين الثاني من عام ١٩٨١ بالقول: (إن ظهور خلية حية عن طريق الصدفة يشبه ظهور طائرة بوينغ ٧٤٧ عن طريق الصدفة، نتيجة هبوب عاصفة على محلات لأدوات الخردة!).

انهيار نظرية الحساء البدئي!

يعتقد العلماء أن غاز الأوكسجين كان موجودا على الأرض منذ أمد بعيد وقبل نشوء الحياة، وقد توصلوا من خلال تحليل الصخور الرسوبية التي تعود الى العصر الكمبري الى أن الأوكسجين كان موجدا بمعدلات عالية، تقارب ما هو عليه اليوم من نسبة العشرين بالمئة، وقد نشرت مجلة العلوم عدد ديسمبر عام ١٩٩٥ مقالا لـ (جون كوهين) يبين فيه تلك النتائج المبهرة، مظهرا الخطأ الفادح الذي وقع فيه (ميلر ويوري) في تجاربهما المثيرة للجدل! تلك التجارب التي أرادت أن تحاكي الجو البدائي الذي كانت عليه الأرص بدايات نشأة الحياة عليها! ومن جانب آخر فقد فنّد الجيوكيميائيون ما ذهب إليه ميلر ويوري في أن الجو كان يحتوي على غاز الميثان والأمونيا وكميات كبيرة من الهيدروجين، فهم يقولون بأن الأرض وجوّها لم يكونا بمثل ما ادعى هذان العالمان، فالعلماء يذهبون الى أن البراكين هي المصدر الرئيس لانبعاث الغازات في جو الأرض، فهي ينبعث منها غاز أول أوكسيد الكاربون وثاني أوكسيد الكاربون وبخار الماء والنتروجين، ويرجحون أن هذه الغازات

كانت متوافرة في وقت مبكر على الارض، وهذا ما يعني أن افتراض غياب الأوكسجين وانعدام وجوده على الأرض وفي جوها افتراض خاطئ! وبالتالي فكل ما بني على هذا الافتراض مردود وساقط!

لقد كان استبعاد الأوكسجين من معادلة النشوء الحياتي على الأرض غير مستند الى أسس علمية رصينة، لأنهم أدركوا جيدا أن وجود الأوكسجين على الأرض آنذاك لا يمكن معه أن تقوم لفكرة التطور قائمة! فالأوكسجين يدمر أي مادة عضوية يمكن أن توجد، ويعتقد العلماء أن الأوكسجين آنذاك كان بمستويات عالية؛ لانعدام طبقة الأوزون المصنوعة من الأوكسجين نفسه، حيث تعتبر هذه الطبقة درعا واقيا من الأشعة فوق البنفسجية، وانعدامها يعني مرور الأشعة فوق البنفسجية بكميات كبيرة مما يساعد على القيام بعملية الانحلال الضوئي للماء، وبالتالي تحرير الأوكسجين بكميات كبيرة في الغلاف الجوي.

لقد أكدت المكتشفات الجيولوجية الحديثة أن طبقات الأرض القديمة تحتوي على معادن مؤكسدة في أوقات مبكرة تصل الى ما يقرب من ٣,٨ مليار سنة! وهو ما يعني أن الأوكسجين كان موجودا آنذاك، كما غاب عن أذهان المدافعين عن تجربة ميلر ويوري أن انعدام

الأوكسجين يعني انعدام طبقة الأوزون، وهذا يعني أن الأشعة فوق البنفسجية ستمرح وتسرح على الأرض وجوها، وبالتالي فلا يمكن بحال من الأحوال أن تنشأ حياة! فهذه الأشعة تدمر المواد الحيوية والعضوية والكيميائية التي بحسب الزعم تكونت في الحساء البدئي مصدر الحياة كما هو المفترض.

وفوق كل ذلك فإنه لم يكتشف أي دليل علمي جيوكيميائي على وجود حساء في وقت مبكر من عمر الأرض! فلو كان لذلك الحساء وجود لكانت الصخور الرسوبية التي تعود الى تلك الفترة تحتوي على نسبة من عناصر ذلك الحساء المفترض من مثل الكاربون وبعض المواد الكيميائية والعضوية! ولم يُعثر على أحفورة ما تدلل على الخطوات التي سبقت الحياة وهيّأت لها، وهنا يُطرح سؤال مهم وهو: لماذا ما زال هنالك بعض من العلماء متمسكين بتلك التجارب المتهاوية أمام المنطق والعقل وأمام مبادئ العلم التجريبي الذي يؤمنون به ويدعون إليه؟! وأغلب الظن أن عدم وجود بديل أفضل يمكن الركون إليه جعل الكثير يتمسكون بهذه التجارب العشوائية والفاقدة للعلمية كما بينا، وكما يقول العالم (جوناثان ويلز) في كتابه الشهير أيقونات التطور: (لا زلنا جاهلين بكيفية نشأة الحياة، ومع ذلك لا زالت تجربة ميلر

أوري تستخدم كأيقونة للتطور، لأنه لم يظهر شيء أفضل منها.. وبدلا من قول الحقيقة، أعطينا انطباعا مضللا أن العلماء أثبتوا تجريبيا الخطوة الأولى في أصل الحياة)، وبعد تلك التشكيكات العلمية بتلك النظرية وما ارتبط بها من التجارب تخلى أخيرا جمهور العلماء عنها، وصرح العالم (نيك لين) بمعية فريقه البحثي التابع لجامعة لندن عام ٢٠١٠ بأن نظرية الحساء البدئي لا تصمد أمام النقد وأنها صارت من الماضي..

الخلط بين التطوّر والتكيّف

يستدل كثير من أنصار نظرية التطور على ما يسمى (البيانات الرصدية)، التي يعتبرونها دليلا محسوسا على صحة نظرية التطور، غير أنهم وقعوا في وهم واضح من خلال عدم تمييزهم بين ما هو تطور (وهو التحول من نوع الى نوع آخر) وما هو تكيف مع متطلبات جديدة يؤدي الى تغيرات ضمن دائرة النوع الواحد، ولا يحصل جراءه تحول من نوع الى آخر، والتكيف يمكن أن نسميه تطورا صغيرا قياسا بالتطور الكبير الداروني، والتكيف أو التطور الصغير هو التطور الواقع والملاحظ على بعض الكائنات، وهو المقبول علميا لاعتماده على بيانات رصدية، أما التطور الكبير فيبقى نظرية بلا بيانات مرصودة تدعمه.

وكما هو معلوم فإن النظرية التطورية مرت بمرحلتين: الكلاسيكية والجديدة، المرحلة الكلاسيكية تنظر الى أن التنوع الهائل للكائنات جميعه يعود الى أصل واحد، ولم تهتم هذه النظرية في هذه المرحلة بالآلية التطورية أو التفسير لتلك التحولات الظاهرية في الأنـواع، جاءت بعدها المرحلة الجديدة، التي كان من أهم أولوياتها واهتماماتها تقديم

تفسير للآلية التي من خلالها يحصل التطور، متخذة من علم الوراثة أساسا لذلك، إضافة للانتخاب الطبيعي والجنسي والبقاء للأصلح أو الأقوى.

ان التطور الصغير والمحدود يظهر من خلال تطور الكائن الحي مثلا بتغير في لون جلده وفق متطلبات خارجية، أو من خلال تغير في حجم عضو ما، وكما يحصل في العمليات التهجينية بين الفصائل المتنوعة التي تنتمي الى نوع واحد، مثال ذلك فايروس الأنفلونزا الذي ما زال يتطور في كل مرة بصورة جديدة، بحيث لا تؤثر فيه اللقاحات السابقة، وهذا خلاف التطور الكبير الذي يذهب الى أن التغير يحصل في الصفات الجينية والمورفولوجية مسببا انتقالا من نوع الى آخر..

وعلى ذلك ينبغي التمييز بين التطورين الكبير والصغير كي لا نقع في تلك الاشكالية التي يقع بها كثير من الدارسين والمهتمين بالنظرية الداروينية مناصرين أم معارضين، فحين يقدم البعض أدلة حقيقية وصحيحة على التطور كما في حالة فيروس الأنفلونزا وغيرها يمتعض البعض من ذلك، آخذا بنقد النظرية الداروينية التي تفترض الأصل المشترك لكل الكائنات، مما دعا ذلك الخلط السيد (مايكل بيهي) أن يقول: (الداروينية الحديثة فسرت التطور الدقيق بشكل رائع، لكن عند

الحديث عن التطور الكبير فعلى التطوريين أن يصمتوا). وعلى ذلك فحري بالمؤمنين بخالق الكون أن لا يمتعضوا عندما يؤتى لهم بشواهد عن التطور؛ لأنها لا تتعدى أن تكون شواهد عن التطور المحدود (التكيف)، وعليهم أن يطلبوا من الملحدين الإتيان بشواهد عن التطور الكبير الذي ينتج عنه تحول من نوع الى آخر، وهذا ما لم يستطع القوم أن يأتوا به.

وقد ذكر أحد الباحثين الغربيين الذي يدعى (نيكولاس كومنينلس) أن من الأخطاء الفادحة والشائعة في الاستدلالات العلمية استعمال التكيف الملحوظ في التطور المحدود ضمن دائرة النوع الواحد للتدليل على التطور الكبير والانتقال من نوع الى آخر، ومن الأمثلة على ذلك التحايل ما قام به أحد المواقع الشهيرة المؤيدة لنظرية التطور من إيراد أكثر من عشرين حالة رصد من خلالها الانتقال من نوع الى آخر، لكن بعد التحقيقات التي قام بها الأمريكي (كيسي لسكين) والتي فحص بها جميع ما ذُكر من حالات تبين أن تلك الادعاءات عارية عن الصحة، وما كان فيها لا يتعدى عن كونه من التطور الصغير المحدود (التكيف)، والذي لم يتعد النوع الواحد..

وهنالك تجربة علمية قصمت ظهر النظرية الداروينية، إذ قام العالم

الامريكي التطوري في جامعة ميشغن الأمريكية (ريتشارد ليسنكي) بملاحظة ما يجري على البكتريا خلال ٢٠ سنة، أي إنه تعقب ما يبلغ من أربعين ألفا من الأجيال البكتيرية، وفي نهاية التجربة لم يلحظ أي تغير على المستوى الجيني للبكتريا، مما دعا ذلك الأستاذ البريطاني في جامعة بريستول (آلان كلينتون) الى القول: (لا يوجد ادعاء في الادبيات العلمية أن نوعا من الكائنات الحية قد تطور الى نوع آخر. البكتريا، وهي أبسط صور الحياة المستقلة تعتبر مثالية لهذه الدراسة، فهي تحتاج أجيالا كل ٢٠ الى ٣٠ دقيقة وتمثل مجاميع كل ١٨ ساعة. ولكن طوال ١٥٠ عاما من علم الجراثيم، لا يوجد دليل واحد أن نوعا من البكتريا قد تغير الى آخر). وهذا يعني أن المحتوى الجيني باق على حاله بلا زيادة تؤدي الى التطور، على الرغم من أن عملية الانتخاب الطبيعي تجري بالفعل لكنها لا تؤدي الى التطور، لذلك نجد أن (دوكنز) وأمثاله يراوغون عندما يجبرون على الدفاع عن مواقفهم الإيمانية تجاه ما يذهبون إليه، وبعدما قالوا له بأن لا يوجد دليل تجريبي ملاحظ يؤيد نظرية التطور قال: (ان رفض التصديق بشيء لم تره بعينيك هو أمر مناف للعقل، فكر في الأمر، أنا لم أر نابليون بعيني من قبل، ولكن هل هذا يعني أن نابليون غير موجود؟)، ولا أعلم ما هو وجه الشبه والخلط بين ما هو تاريخي وما هو علمي يحتاج لإثباته السير وفق المنهج التجريبي، وهم

بهذا الشيء لم يفترقوا عن المؤمنين بالأديان والمغيبات. وعلى كل حال لنا الحق في أن نقول إن النظرية الدارونية ما هي إلا نظرية ميتافيزيقية بعيدة عن الواقعية والتجريبية، وهذا الشيء بالنسبة للتطوريين وأتباعهم تخريف وعداء للعلم والحداثة، فكانوا متناقضين مع أنفسهم من حيث لا يشعرون!!

نظرية التطور تخضع للتطور والتكيف والهرمنة!!

بعد أن وضعت النظرية الدارونية الكائنات الحية والمجتمع والتاريخ والفلسفة والأخلاق والسياسة والاقتصاد والدين وغير ذلك تحت مظلة التطور اتجهت الى نفسها هذه المرة لتُخضعها للتطور! فصارت كالحرباء تتلون بحسب طبيعة الظرف والمحيط والاكتشافات الجديدة، التي تتجدد معها مطبات ونقائض جديدة بوجه النظرية المثيرة للجدل، بما يجعلها تقدم على التكيف مع الوضع الجديد احتفاظا توهميا بفاعليتها العلمية.

ويبدو أن نظرية التطور حالها حال باقي النظريات العلمية، التي عانت من الهرمنة والتبدل والتغير وفق مقتضيات العصر، فالنظرية التي جاء بها دارون لم يبق منها سوى الفكرة العامة فقط، أما المبادئ والحيثيات والآليات فقد تبدلت، وقد أُجري حولها عدة تحديثات لجعلها ملائمة ومواكبة للتطور العلمي، ولولا ذلك لماتت النظرية منذ عقود سالفة، لأنها في كل مرة تواجه عقبة علمية ومنطقية يتم تجاوزها

عبر عدد من التعديلات، وبالتالي يمكننا القول بأن أنصار النظرية الدارونية جعلوا منها نظرية مطاطية تتكيف ومتطلبات المرحلة، أي إنها تخضع للقانون نفسه الذي فرضته على الكائنات الحية! فهي في تطور دائم!! وهي في صراع مع العلم نفسه كلما جدّ جديد!!

وقد عرض (مايكل دانتون) في كتابه الرائع (التطور: نظرية في أزمة) أهم التناقضات التي وقعت فيها النظرية، كما تعرض لأهم المغالطات العلمية التي ساقها أصحاب التطور، فعندما اكتشف العلماء العصر الكمبري أو ما يسمى بالانفجار الكمبري ظهرت أزمة كبيرة عند أنصار الدارونية، وهي تلك الأزمة المتمثلة بغياب الحفريات العائدة للكائنات المتدرجة بالانتقال من نوع الى آخر حسب الافتراض، فقد ظهر أكثر من ٤١ شعبة من شعب الحيوانات بشكل مفاجئ منذ ما يقرب من ٥٥٠ مليون سنة بدون سجل أحفوري قبل ذلك التاريخ! فنظرية التطور تفترض أن الكائنات ظهرت بشكل متدرج وبطيء، أي لابد من وجود سجل أحفوري حفظ الوسائط المتدرجة بين الأنواع إن كان هنالك تطور فعلا، وإلا فهذا يعني أن لا وجود للتحولات التطورية التي افترضها أصحابها، فلا يوجد هناك أحفوريات لكائنات متدرجة بين الأنواع من الكائنات البسيطة الى الأكثر تعقيدا.

مع ذلك فقد استطاع القوم أن يجدوا ما يمكن تسميته بالمخرج، إذ اقترح العالم (ستيفن جولد) في العام ١٩٧٢ آلية جديدة في الانتخاب الطبيعي، وقد أطلق عليها (التوازن المتقطع)، وهو بهذا أراد أن يعطي تفسيرا للتطور ضمن الحفريات الجديدة المكتشفة، مقترحا أن الكائنات الحية تمر بفترات من الاستقرار، لا تظهر في تلك الفترات أي أنواع جديدة، ثم بعد ذلك تأتي فترات من التحولات العنيفة، التي تتسبب بظهور أنواع جديدة من الكائنات الحية. وهذا الشيء بعيد جدا عما أتى به دارون نفسه في النظرية التطورية التي قال فيها أن هنالك تدرجا في التحول بين الأنواع. وهذا تكلف ليس في محله بتاتا، وما هو إلا هروب من الحقيقة المرة بالنسبة لدعاة التطور.

الأحفوريات ضد النظرية!

لو كانت نظرية التطور صحيحة فيما ما تدعو إليه لوجدنا السجل الأحفوري حافلا بالسلالات المتدرجة بين الأنواع الحالية من الكائنات، ولتوافر عندنا عدد هائل من المتحجرات التي تعود لكائنات تمثل الحلقات المفقودة للأشكال الانتقالية بحسب الفرض التطوري، فما وجد من أحفوريات لا تتعدى ما هو متواجد من الكائنات الحية أو بعض الكائنات التي انقرضت جراء التغيرات المناخية، وحتى تلك الكائنات المنقرضة لا تمثل بأي حال من الأحوال حلقات التدرج الانتقالي بين الأنواع الحية، وهذا مضمون ما أشار له الدكتور البيولوجي جونثان ويلز، ويضيف الدكتور ويلز في صفحة ٥٦ من كتابه الرائع (أيقونات التطور) قوله: (عندما كتب داروين كتابه أصل الأنواع كانت أقدم أحفورة معروفة من العصر الجيولوجي الكامبري، لكن أحفورات العصر الكامبري لا تلائم نظرية داروين، وبدلا من البدء بنوع أو عدة أنواع انفصلت بشكل تدريجي عبر ملايين السنين إلى عوائل ثم إلى رتب ثم إلى صفوف ثم إلى شعب؛ كانت البداية في

العصر الكمبري بظهور مفاجئ كالانفجار لعدة رتب وصفوف من حيوانات متمايزة بشكل كامل، وبعبارة أخرى: المرحلة العليا من الهرم الحيوي تظهر وكأنها في قاعدته. وكان داروين على علم بهذا، واعتبر ذلك عقبة رئيسية أمام نظريته؛ فكتب في أصل الأنواع: «إن كانت النظرية صحيحة فمما لا شكّ فيه أنه قبل طبقة العصر الكمبري السفلى توجد عدة طبقات مترسّبة تشير إلى زمن احتشدت فيه الكائنات الحية» واعترف بأن: «عدة تقسيمات رئيسية للمملكة الحيوانية ظهرت فجأة في أسفل الصخور الحاوية على الأحافير» وسماها داروين بـ «المشكلة الرئيسية التي تعترض النظرية»، ورآها: «عصية على التفسير في وقتنا هذا، وقد تفتح جدلا مُحقا ضد الأفكار التي عرضناها هنا). ويذهب في الصفحة التالية من نفس الكتاب الى أن فهمنا عن العصر الكمبري أصبح مغايرا للفهم القديم المعاصر لـدارون، إذ اكتُشفت وما زال تُكتشف أماكن تجمع الأحافير التي تسبق العصر الكمبري، وبذلك فكثير من علماء الأحفوريات اليوم متأكدون بلا أدنى شك من أن الكائنات الحية الرئيسة برزت بشكل مفاجئ في بداية العصر الكمبري.

ويذهب العالمان جونثان ويلز ووليم دمبسكي في كتابهما (أصل الحياة) في الصفحتين ١٢٩ و ١٣٠ الى أن علماء الأحافير وجدوا العديد

من المتحجرات، لكن لم يجدوا ذلك العدد الهائل (المفترض وفق نظرية التطور) من الكائنات الوسيطة التي كانت في قديم الزمان موجودة حسب الفرض الـداروني، وبـدلا من أن تملأ الفجوات المنتشرة في السجل الأحفوري، فإن المكتشفات الحفرية الجديدة كشفت عن أنماط من كائنات منقرضة، تنتمي الى أحد الأنواع الحيوانية، وهنا يمكن لنا أن نقف عند مثالين مشهورين على هذه الحالة، الأول هو طائر الأركيوبتركس، وهو طائر قديم بسمات حيوان زاحف، والثاني حيوان البلاتيبوس صاحب المنقارِ الشبيه بمنقار البط، والذي لديه فرْو شبيه بفرو الثدييات. ومع ذلك فإن هذه الكائنات الفريدة تنتمي إلى إحدى المجموعات التصنيفية؛ فهي لا تملك سمات مشتركة بنسب متساوية بين مجموعتين تصنيفيتين أو أكثر. فطائر الأركيوبتركس يبدو الريش فيه مطابقًا لريش الطيور الحالية، وله بنية انسيابية حقيقية ملائمة للطيران. الفرق هو أن هذا الطائر كان يحمل بعض المميزات التي نتجت عن تكيفه مع البيئة ومتطلبات الحياة التي كانت تحيط به، مظهرة إياه وكأنه يحمل بعض صفات الزواحف، كما في الذيل العظمي ووجود الأسنان في المنقار والمخالب في الأجنحة. وتبدو حالة البلاتيبوس كحالة الأركيوبتركس، يضع البلاتيبوس البيوض وله منقارٌ شبيهٌ بالبطّ، لكنّه يشبه الثدييات في امتلاكه الفراء وإرضاعه الصغار. ويدرج علماء

التصنيف البلاتيبوس ضمن الثدييات، ولم يعتبره أحد شكلًا انتقاليًا بين الثدييات والطيور.

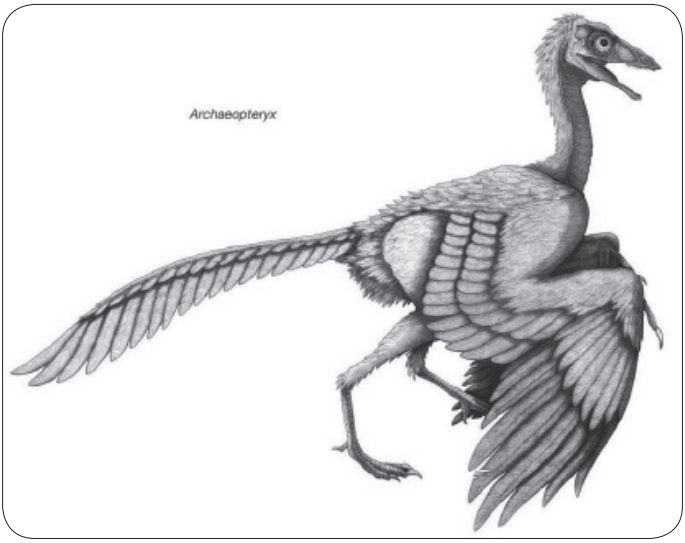

إن الفكرة القائلة بأن "الديناصورات نمت لها أجنحة أثناء محاولتها التقاط الذباب" ليست مزحة، بل هي نظرية يدعي أنصار التطور أنها نظرية علمية. ويكفي هذا المثال في حد ذاته ليبين إلى أي مدى يجب أن نأخذ أنصار التطور بجدية.

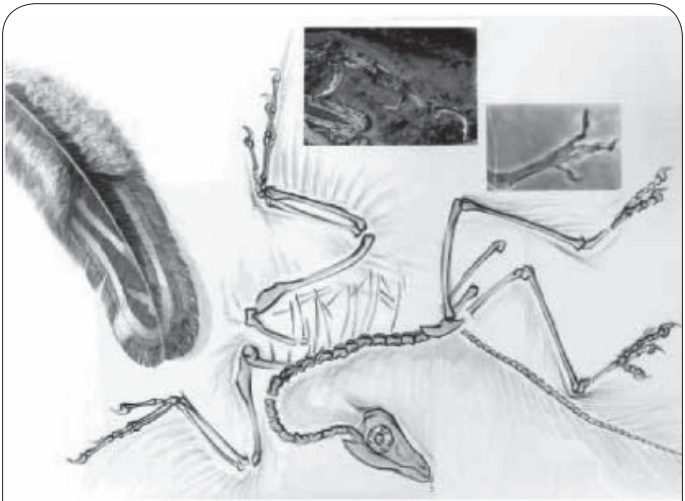

كشفت الدراسات التشريحية التي أجريت على طائر الأركيوبتركس أنه يملك قوى كاملة تمكنه من الطيران، تماما مثل تلك التي يملكها الطائر الحديث. ومن ثم، فإن الجهود الرامية إلى تشبيهه بالزواحف ليس لها أي أساس من الصحة.

وتظهر هذه الحيوانات وكأنها الحلقات المفقودة المفترضة من التطور الإحيائي الموهوم، لكن العلماء البيولوجيين صنفوها ضمن

إحدى المجموعات التصنيفية الحيّة، ولم تُدرج على أنها مجموعة تصنيفية مختلطة، وبشكل عام: كلما ازدادَ عددُ الأحافير المكتشفة من قبل علماء الأحافير ازداد وضوح تعارض الأحافير المكتشفة مع ما تفترضه نظرية داروين. إن الأحافير المكتشفة لا تشكل نمطا متدرجا إطلاقا، بل هي أقرب ما تكون من عناقيد مجتمعة تفصل بينها فراغات. ولا نغالي إن قلنا أن النمط الأحفوري يشبه الى حد بعيد النمط المعاصر الذي نشهده في تصنيف الكائنات، فمثلما توجد سلالات عديدة من سلالات الأحصنة غير أنها بينة الانعزال والاختلاف عن الماشية، وكذا في غيرها من الكائنات الحية الأخرى، وتتجمع التنوّعات حول نمط مورفولوجي أساسي، بدلًا من اندماجها فيما بينها على نحو سلس.

ونجد أن العالم ستيفن ماير في كتابه (شك دارون) في صفحة ٢٣٤-٢٣٥ يذكر أن نيلز ألدرج المختص بعلم الأحافير التطوري وحامل شهادة الدكتوراه في الجيولوجيا قال في محاضرة له إن إدراك «غياب التغيّرات» بحد ذاته «نمط مثير للاهتمام»، أو كما وصفه «إن الثبات شيء من البيانات»، والمقصود بمصطلح الثبات النمط الذي تبديه معظم الأنواع خلال فترات ظهورها التاريخية الجيولوجية من عدم التغيّر بشكل ملموس، أو التأرجح الشكلي الظاهري البسيط،

الذي يغيب عنه التوجيه الواضح، وأردف ألدرج قائلًا: (كان ينظر تقليديا لعجز علماء الأحافير عن العثور عما أخبرهم بضرورة وجود علماء البيولوجيا التطورية على أنه نتيجة مزيفة لفقد أجزاء من السجل الأحفوري، فجاء مفهوم الثبات محرجا للغاية).

وهكذا صارت الأحافير من أبرز المطبات التي تعترض نظرية التطور، وأمست تلك المتحجرات علما ذا نتاجات يدحض وينقض فكرة التطور، حتى صرح أكثر من عالم ينتمي الى التطوريين أنفسهم يؤيد هذا الشيء، فمثلا نجد أن ديريك آجر عالم المتحجرات الإنكليزي المشهور يعترف في كتابه (طبيعة السجل الأحفوري) الصفحة ١٣٣ بهذه الحقيقة رغم كونه أحد أنصار التطور ودعاته قائلاً: (تتمثل نقطة الخلاف في أننا إذا فحصنا سجل المتحجرات بالتفصيل، سواء على مستوى الترتيب أو الأنواع، فسنكتشف -مرارًا وتكرارًا- عدم وجود تطور تدريجي، بل انفجار فجائي لمجموعة واحدة على حساب الأخرى). ويعلّق داع آخر من دعاة التطور، هو عالم المتحجرات مارك سيزارنكي في كتابه (إحياء الحملة الصليبية الخلقية) صفحة ٥٦ على هذا الموضوع قائلا: (إن المشكلة الأساسية في إثبات النظرية تكمن في سجل المتحجرات، أي آثار الأنواع المنقرضة المحفوظة في التكوينات الجغرافية للأرض..

فلم يكشف هذا السجل قط أية آثار للأشكال المتوسطة التي افترضها دارون، وعوضاً عن ذلك تظهر الأجناس وتختفي فجأة.. ويدعم هذا الشذوذ حجة دعاة الخلق القائلة بأن الأنواع قد خلقها الله).

وأخيرا كما يقول الأستاذ بجامعة كاليفورنيا فيليب جونسون في كتابه (قواعد التفكير الدارونية) الصفحة ١٢ وهو من أبرز منتقدي الدارونية في العالم: (تتنبأ النظرية الداروينية «بمخروط من التنوع المتزايد» عند تشكل أول كائن حي، أو أول نوع حيواني، تنوَّع بالتدريج وباستمرار ليكوِّن المستويات العليا من الترتيب التصنيفي. ولكن سجل الحفريات الحيواني أقرب إلى المخروط المقلوب رأسا على عقب، مع وجود الشعب في البداية وتناقصها بعد ذلك). وبعد كل هذا فهل يبقى للنظرية عند الدارسين العلميين والموضوعيين شيء من الاحترام؟!

وأخيرا نورد أنه تم اكتشاف متحجرات شكلت ضربة قوية للنظرية التطورية، إذ وجد الأمريكي (رونالد بريد) في عام ١٩٣٠ في ولاية تكساس الأمريكية في طبقة جيولوجية آثارا تعود لديناصور وإنسان، مما يعني أن الديناصور والانسان عاشا معا في وقت واحد! وكان ذلك عند نهر بلاكسي في منطقة جلين روز، وكانت هذه الآثار بالنسبة للإنسان كبيرة وضخمة قياسا بآثار أقدامه هذه الأيام، وكانت الأوساط

العلمية آنذاك مشككة بالحدث، وتم تهميش ذلك المكتَشف عن ساحة الأبحاث والدراسات، حتى قام العالمان التطوريان جلين كوبان وروني هيستنس بالتنقيب في تلك المنطقة والتحقيق في الأمر، وكان ذلك في فترة الثمانينات من القرن المنصرم، وتوصلا إلى نتائج ساهمت بشكل كبير في إقصاء ما توصل إليه رونالد روز من قبل، إذ ادعيا بأن ما تم اكتشافه يعود إلى أثر لقدم ديناصور كان يمشي على كعبه بدلا من أصابعه!! أو ربما -كما قال هيستنس- كانت أقدام ديناصور يعاني من فلات فوت!! مما أدى كل ذلك إلى نسيان ذلك المتحجر سنوات عديدة، لكن فيما بعد لم يكن بد من الاعتراف بتلك المتحجرات وإيداعها في متحف الخلق، واحتُسبت على أنها دليل قوي على تهافت النظرية الدارونية، حتى كُتبت لافتة في منطقة جلين روز تحمل العبارة القائلة: (البرهان هنا: الانسان والديناصور عاشا معا). وهكذا فإن المكتشفات العلمية المستجدة على الدوام -كما يقول عالم الحياة الأمريكي جوناثان ويلز في الصفحة ٣١ من كتابه (ايقونة التطور)- جاءت لتقضي على شجرة التطور المزعومة تماما، وربما أنكم لم تقرؤوا عن هذا في الكتب الدراسية، إلا أن الحقيقة هي أن شجرة التطور الخاصة بدارون أصبحت بالفعل في وضع المنهار.

التطور من نظرية الى ايديولوجيا

من أكثر المآخذ على أنصار نظرية التطور أنهم أخرجوها من كونها نظرية قابلة للخطأ أو الصواب، وتحولت عندهم الى ايديولوجيا يتعصبون لها!! فهم يعلنون على الملأ جهارا أنهم أصحاب الحقيقة المطلقة فيما يدعون، بل أكثر من ذلك باتوا يقيمون الأدلة المزيفة والمشينة لكي ينتصروا لهذه النظرية! ضاربين بعرض الحائط المسؤولية العلمية والأخلاقية التي يجب أن يتحلوا بها! وهذا الشيء لم نجده مع أي نظرية أخرى من النظريات العلمية التي ثار حولها الجدل واللغط وما الى ذلك! فكل المجالات العلمية فيها من النظريات التي كان لها أنصار ومعارضون على السواء، لكن لم نرى أن أحدا من أنصار تلك النظريات قام بالتزوير من أجل أن يدعم النظرية التي يدعيها كما فعل التطوريون، فغاية العلم هو الوصول الى الحقيقة، ومن تلك العمليات التزويرية التي ارتبطت بنظرية التطور ما قام به الطبيب والعالم الألماني ارنست هايكل المتوفى عام ١٩١٩، إذ ادعى هذا العالم المناصر للتطور أن صور الأجنة التي في الرحم الانساني تتطابق أو قل تعطي الصورة

الكاملة عن العملية التطورية التي بدأت من خلية واحدة مرورا بالرخويات فالزواحف حتى الوصول الى الكائن الأرقى الانسان! فعندما رأى أن صور الأجنة لا تطابق فحوى الدارونية قام بعمليات حذف وإضافة لها لجعلها توحي بالتطابق مع نظرية التطور! وبعد أن اكتُشف الخداع والتزوير قام هايكل بتقديم اعتذار عما فعله، بعد فترة من التردد والصمت، فكتب مقالا في يوم ١٤/ ١٢/ ١٩٠٨ قال فيه: (إن ما يعزّيه هو أنه لم يكن الوحيد الذي قام بعملية تزوير لإثبات صحة نظرية التطور، بل إن هناك المئات من العلماء والفلاسفة قاموا بعمليات تزوير في الصور التي توضح بنية الأحياء وعلم التشريح وعلم الأنسجة وعلم الأجنة لكي تطابق نظرية التطور)!!

صورة ٢. من مقالة Pennisi: "أجنّة هايكل: إعادة الكشف عن التزييف" مجلة ساينس ١٩٩٧

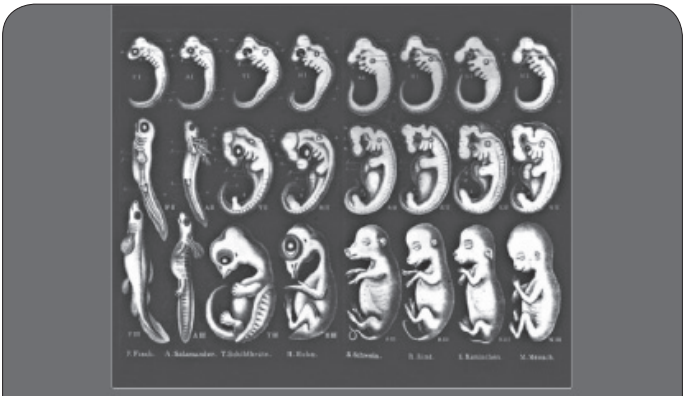

صورة ٣. رسومات من كتاب هايكل: تشكّل الإنسان Anthropogenie الطبعة الأولى (١٨٧٤)

صورة ٤. رسومات من كتاب هايكل: تشكّل الإنسان Anthropogenie الطبعة الرابعة (١٨٩١)

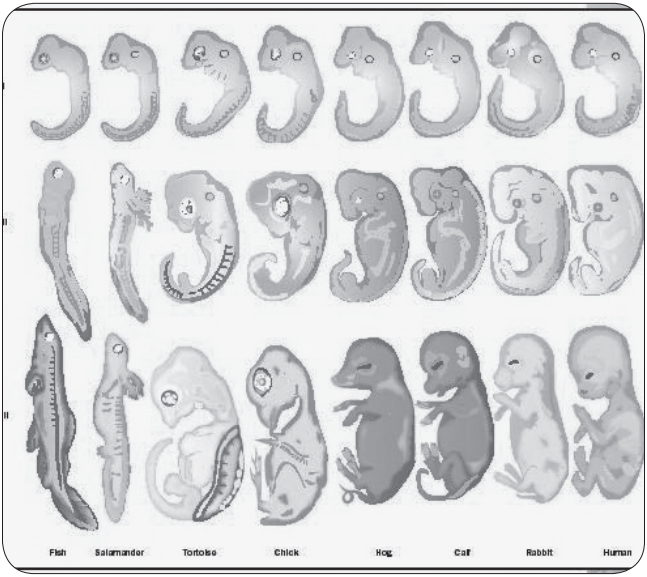

ومن عمليات التزوير التي ظهرت على مستوى عال من الشهرة ما سمي بـ (إنسان بلتداون)، وكانت هذه العملية عام ١٩١٢ في بريطانيا، حيث قاموا بصنع جمجمة مركبة من قحف انسان وفك قرد (أورانجتون)، كما قاموا بإضافة أسنان انسانية الى الفك، وادعوا أنها تعود لإنسان البلتداون، وأن عمر هذه الجمجمة يقترب من نصف مليون سنة ماضية!! وانطلت هذه العملية على العلماء البيولوجيين وأطباء الأسنان مدة من الزمن تقارب الأربعين سنة! حتى ألف الدارسون مئات الكتب والرسائل الجامعية اعتمادا عليها! معتقدين أنها دليل على التطور الذي حصل بين نوعين من الحيوانات، وأن هذه الجمجمة تعود

الى احدى الحلقات التدرجية التي تقع بين القرد والانسان! بل يقال أن هذه الجمجمة أشعلت الصحافة المهتمة بالقضايا العلمية والبيولوجية التطورية، حتى كُتب عنها ما يقرب من نصف مليون مقال!! لكن بعد أن قام بعض العلماء من جامعة أكسفورد بفحص تلك الجمجمة تبين أنها مزورة!! مستخدمين بذلك أشعة أكس التي لها القدرة على اكتشاف الأعمار الساحقة في القدم، وقد جاء في التقرير المنشور عام ١٩٥٣ (إن انسان «بلتداون» ليس إلا قضية تزوير وخداع تمت بمهارة من قبل أناس محترفين، فالجمجمة تعود لإنسان معاصر. أما عظام الفك فهي لقرد أورانج بعمر عشر سنوات، والأسنان أسنان إنسان معاصر غرست بشكل اصطناعي وركبت على عظام الفك. وظهر كذلك أن العظام عوملت بمحلول ثاني كرومايت البوتاسيوم لإحداث آثار بقع للتمويه وإعطاء شكل تاريخي قديم لها).

وليست هذه العملية الوحيدة التي زور بها الداروينيون انتصارا لنظرية التطور، فهناك فضيحة (انسان النبراسكا) في العام ١٩٢٧ في الولايات المتحدة الأمريكية، وهنالك الكثير من تلك العمليات التي لا مجال لذكرها، وكلها تؤكد أن النظرية التطورية تحولت من مجرد نظرية إلى ايديولوجيا يتعصب لها أنصارها تعصبا أعمى، ضاربين سمة الموضوعية عرض الحائط، غير آبهين بالمعايير العلمية والأخلاقية التي يُفترض أن يتحلى بها أصحاب العلم والمعرفة، وهنا يبرز السؤال: لماذا كل هذا الإلحاح على أن تكون نظرية التطور نظرية حقيقية ومفروغا من واقعيتها بأي وسيلة من الوسائل حتى لو تطلب الأمر القيام بالكذب والتزوير؟! والجواب على ما أظن هو اعتقاد هؤلاء أن التطور ينقض

الإيمان بالإله ويؤدي إلى الإلحاد، وبالتالي الانحلال القيمي والأخلاقي ومسايرة الهوى والغرائز واقتناء الملذات بكل أشكالها من دون أي رقيب أو عقبات، ظنا منهم أن الإيمان والتطور لا يمكن أن يلتقيا، وهذا وهم وقع فيه أنصار التطور الملحدون! وكما قلنا سابقا لا يوجد مانع من أن الله عز اسمه قد خلق السماوات والأرض وما بينهما وفق عمليات متدرجة في التقدم والتطور، وكما يسمى بالتطور الموجه.

الجينيوم والمكروبات والكيمياء الحيوية تحرج التطور!

إن ما أتى به العالم الأحيائي دارون من افتراضات في مسألة التطور الأحيائي للكائنات كان في وقت لم تكن فيه العلوم والمعارف بهذا المستوى من التقدم الذي نحن فيه في عصرنا الحالي، فعلم الجينات والكيمياء الحيوية والمكروبات لم يكن موجودا، ولو كانت هذه العلوم والمعارف قد تم اكتشافها قبل أن يقدم دارون نظريته التطورية لوعى أن نظريته لا يمكن لها أن تكون علمية يستسيغها المتعلمون فضلا عن المثقفين.

لقد كانت المعلومات عن الخلية في السنوات التي عاصرت دارون بسيطة جدا، إذ كان المتوفر من المعلومات عن تشريح الخلية ساذجا جدا لا يرقى أكثر من مشاهدة النواة والسايتوبلازم والمايتوكوندريا وما إلى ذلك من المكونات الواضحة التي تسبح في سايتوبلازم الخلية، أما الكروموسومات وما فيها من جزيئات دقيقة فلم يعرفها المجتمع العلمي آنذاك، هذا فضلا عن الـ (DNA) المركب الأهم الذي يعتبر

اكتشافه فتحا علميا مبينا.

ولو توافر لدارون آنذاك مجهر الكتروني دقيق لعرف من خلال مشاهدة الخلية أن هنالك تعقيدا عظيما وتراكيب ليست بعادية للجزئيات العضوية التي تركب الخلية، ولكان قد استنتج أن نظاما بهذا التعقيد وهذه الدقة لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون نتيجة لتغيرات بسيطة خاضعة للتطور الذي طرحه آنذاك!

فالمعلومات التي يتحدد بها الجنس توجد في المورثات (الجينات) التي تحتويها الكروموسومات المودعة في نواة الخلية، وبالتالي يستحيل وفقا لعملية الانتخاب الطبيعي ـ التي تعد الركيزة الثانية لعملية التطور الدارونية (القديمة والحديثة) ـ أن تولد أجناسا جديدة عن طريق حدوث تغييرات في منظومة الجينيوم.

إن عملية تطور جزيء بروتين واحد عملية معقدة تحتاج ـ وفق عملية الاحتمال الرياضية ـ إلى وقت طويل جدا حتى يمكنها الانتقال إلى مرحلة أكثر تطورا، فما بالك بخلية كاملة وعضو كامل وجسم بكماله!!! وقد بيّنا فيما سبق استحالة هذا الشيء ببيان مفصل يمكن الرجوع إليه.

اشكالية التطور على قفزات

كان فيما مضى يعتقد التطوريون أن الانتقال من نوع إلى آخر يتم عبر التطور المتدرج، مثلا الانتقال من قرد الشمبانزي إلى الانسان لا يحدث من دون وسائط من الأنواع بين هذين النوعين، لكن هذه الأنواع والوسائط انقرضت كما هم يدعون! ولو كانت هنالك وسائط لرأينا لها وجودا فيما بيننا، فلماذا انقرضت وبقي نوعان فقط من بين كل تلك الأنواع الكبيرة التي تدرج بها التطور من القرد إلى الانسان؟!

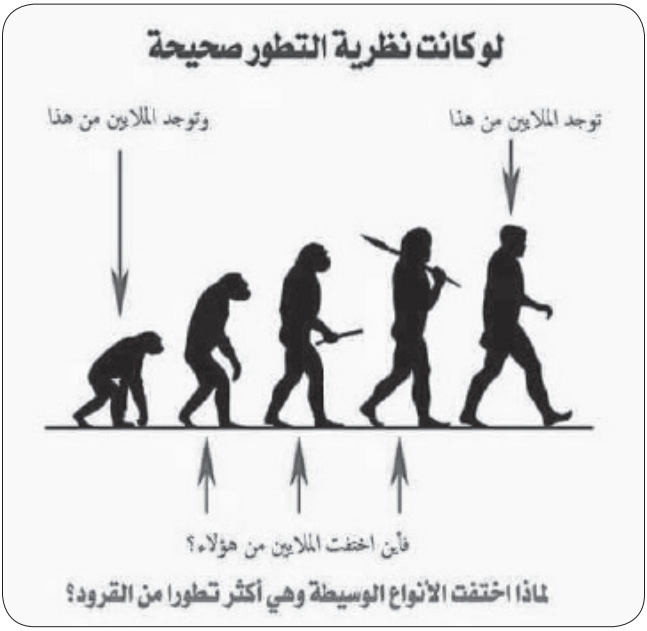

لكن في العقود الأخيرة طرح عدد من التطوريين نظرية جديدة تفسر آلية التحول من نوع الى آخر من خلال الطفرة أو القفز من دون المرور بالوسائط التي ذكرناها قبل قليل، بعد أن اقتنع بعض العلماء أن السجلات الأحفورية والمتحجرات لم تترك لهم مجالا في مسألة الوسائط التي تتعلق بالتطور التدريجي، فالمتحجرات أثبتت أن لا وجود لأي نوع يمكن أن يكون حلقة وسط وربط بين الأنواع الحية المتجاورة في الترتيب التطوري.

ومما لابد من ذكره أن هنالك تقارير تشير الى وجود مكتشفات متحجرة تشكل حلقات وصل بين الانسان والقرد مثلا ثبت بطلانها، وأنها لم تكن سوى متحجرات لبعض الأصناف من القرود التي انقرضت، هذا ما عدا عمليات التزوير التي قام بها بعض التطوريين لإثبات نظريتهم ليس إلا!

ففي سبعينيات القرن الماضي (العشرين) برزت فكرة التطور على قفزات، وهذه الفكرة تذهب إلى أن التطور يحدث نتيجة تغيرات فجائية كبيرة، غير أن هذه الفكرة عبارة عن نموذج خيالي، فهنالك من ذهب إلى أن أول طائر خرج من بيضة تعود للزواحف من خلال طفرة

كبيرة حصلت نتيجة صدفة في جينيوم تلك البيضة! بيد أن هنالك من يثير اشكالية وفق هذه القاعدة فيقول: من الممكن أن يتحول بعض من الحيوانات الحية إلى حيتان ضخمة إذا تعرضت إلى تغيرات جينية مفاجئة، لكن هذا لم يحدث قط ولن يحدث!! بل لو كان هنالك تغيير جيني يقود إلى تغير في الأنواع الحية لأمكن أن يتحول ـ وفق هذا الطرح ـ الجرذ والفأر إلى إنسان!!

اشكالية انتقال الحياة من الماء إلى اليابسة

قبل ما يربو على أكثر من خمسين سنة كان العلماء التطوريون يرون أن هنالك أسماكاً قد امتلكت بعض المعطيات التي تساعدها في العيش على اليابسة، ولا سيما بعد أن اكتشفوا أحفورة لسمكة بدت لهم أنها لسمكة متطورة في استعداد للانتقال على اليابسة، وهذه السمكة تدعى (كولاكانث)، ويقدر عمرها بحوالي ٤١٠ مليون سنة، بوصفها شكلا انتقاليا يمتلك رئة بدائية تمكن الحيوان من التنفس فيما لو ترك الماء، وتمتلك أيضا دماغاً متطوراً قياسا لدماغ الأسماك العادي، كما لديها جهاز هضمي وجهاز للدورة الدموية أيضا يمكنه أن يعمل لو توافرت له بعض الظروف على اليابسة.

كما أن هذه السمكة لديها زعانف قوية وطويلة نسبيا، يبدو ـ كما يرى التطوريون ـ أنها معدة للمشي بها على اليابسة، وأنها أيضا تمثل بداية لتشكل الأطراف العلوية والسفلية، لكن بعد أن اكتشف علماء الأحياء أن هذه السمكة موجودة حاليا في المحيط الهندي! بل اصطيدت سمكة من هذا النوع عام ١٩٣٨ مما شكل صدمة كبيرة لدعاة التطور، حتى قال عالم المتحجرات التطوري ج. ل. سميث إنه لو صادف أن وجد ديناصورا لما اندهش أكثر من اكتشافه وجود سمكة (الكولاكانث)!!

وبعد تشريح هذه السمكة تبين أنها لم تكن تمتلك رئة بدائية بقدر ما كانت تحتوي على كيس دهني خُيل للتطوريين من خلال متحجرات الكولاكانث أنه رئة بدائية! ولم يكن لديها دماغ متطور قياسا لدماغ

الأسماك الأخرى، كما لم يكن بوسعها أن تمتلك مؤهلات السير على اليابسة كما كان يشيع التطوريون! بل كانت تعيش في قعران البحار والمحيطات ونادرا ما كانت تقترب من الشواطئ!!

إضافة الى ذلك فإن هنالك نوعاً من الأسماك لديه القدرة على العيش على اليابسة الرطبة الوحلة القريبة من الشواطئ، وهي أسماك لها امكانية المشي على زعانفها والتنفس من الهواء وما الى ذلك، فهي إذن نوع من الأسماك التي لها قابلية العيش البرمائي حالها حال الضفدع والأفعى وغير ذلك.

اشكالية تطور الطيور من الديناصورات

يذهب التطوريون إلى أن الكائنات البحرية التي انتقلت من الماء إلى اليابسة تحولت إلى زواحف، وأن هذه الزواحف تطورت لاحقا إلى حيوانات ذات أرجل ومنها الديناصورات، وهذه الديناصورات هي التي تطورت فأنتجت لنا الطيور!

ووفقا لما يذهب إليه التطوريون فإن الديناصور بدأت يداه بالتحول شيئا فشيئا إلى جناحين، وهذه العملية استغرقت ملايين الأجيال والسنين! ولم تحدث كما قد يتصور البعض في جيل واحد بحيث تحولت الأطراف الأمامية إلى جناحين في ديناصور، فالعملية متدرجة كما يقولون، والصورة الآتية تبين العملية بأبسط تصوير..

ويذكر صاحب كتاب (خديعة التطور) في صفحة ٦٢ أن الباحث العلمي ألان فيدوتشيا من جامعة كارولينا الشمالية قام بالاعتراض على النظرية القائلة بالقرابة بين الديناصورات والطيور، إذ قال في هذا الصدد ما نصه: (لقد درست جماجم الطيور لمدة خمس وعشرين سنة، وأنا لا أرى أي وجه تشابه بينها وبين جماجم الديناصورات [...] إن نظرية تطور الطيور من كائنات ذات أربع أرجل هي في رأيي وصمة عار على جبين علم البلانتولوجيا في القرن العشرين).

ويستشهد الباحث يحيى هارون في الصفحة نفسها وما بعدها من الكتاب نفسه برأي العالم لاري مارتن المختص بالطيور القديمة

في جامعة كنساس، الذي اعترض على نظرية انحدار الطيور من الديناصورات، موضحا ما نصه: (إذا اضطررت إلى تأييد الفكرة القائلة بأن أصل الطيور هو الديناصورات بصفاتها الحالية فسأشعر بالخجل في كل مرة أُضطر فيها للنهوض والتحدث عن هذا الموضوع).

فلو كان تكرار محاولات اصطياد الحشرة يعمل على إحداث تغيرات تلائم تلك الأماني والمحاولات لفتحت لنا الباب على مصراعيه، فالإنسان منذ القدم وهو يحاول ويتمنى أن يطير ويهرب مما يلحقه من خطر ناتج عن مفترس أو ما إلى ذلك، لكن لم نجد ولو قيد أنملة أنه قد تطور باتجاه أن تتحور يداه إلى ما يمكن عده تحولا باتجاه الأجنحة!! وعلى ذلك قس كل محاولات الكائنات التي تحنو اتجاه سلوك ما منذ القدم ولم تتغير أبدا!!

اشكالية قوانين الديناميكا الحرارية مع التطور

يُعد القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية من القوانين الفيزيائية المهمة والأساسية، وفحوى هذا القانون هي أن كل الأنظمة تؤول إلى الخراب وتُصاب بالاضطراب والخلل مع مرور الزمن في حال تركت من دون تدخل قوة أو علة خارجية في الظروف الطبيعية، ويكون حجم الخلل والخراب في النظام متناسباً طرديا مع الزمن المار عليه.

وهذا الشيء ملاحظ من قبل البشر جميعا، فهذه الأجهزة والأنظمة وما شاكل من آلات ومعدات ومكائن عند تركها من دون عمل وإدامة فإنها سوف تؤول إلى العطل والاستهلاك والخراب، وهذا الشيء يجري مع الكائنات الحية وبشكل أسرع مما يجري مع الجمادات، وهذا القانون ثبتت صحته وهو قانون الأنتروبيا المتفق عليه من قبل علماء العصر، والذي تنبأ انشتاين بأن هذا القانون سيكون القانون الأول في الكون أجمع.

لقد طرحت نظرية التطور بآلية تناقض هذا القانون المتفق عليه، فالتطور يذهب إلى أن الـذرات المتفرقة تتجه نحو تكوين جزيئات متفرقة وغير منتظمة، ثم تنتظم هذه الجزيئات في مركبات أكثر تنظيماً وأكثر تعقيداً، فكوّنت الـ DNA و الـ RNA، التي تطوّرت لاحقا الى خلايا حية ثم كائنات متعددة! وهذا خلاف قوانين الديناميكا الحرارية الفيزيائية المثبتة من قبل العلماء.

وبهذا يلاحظ أن هذا القانون يمثل عقبة في طريق النظرية التي يتشبّث بها التطوريون على مدى أكثر من قرن ونصف من الزمان، ليس من جانب التطبيق بل في جانبها المنطقي أيضا، وعجز التطوريون عن تقديم تفسير يخرجهم من هذا المأزق المضنك، عدا بعض المهووسين بالنظرية، ممن قفز على تلك القوانين وتخطاها مصداقا للمثل العربي القائل: (نعجة حتى وإن طارت!).

خرافات زعيم الداروينية الجديدة (دوكنز)

ألف عالم الأحياء البريطاني المعاصر (ريتشارد دوكنز) أكثر من كتاب انتصارا لنظرية التطور، وهو إنما ألح بالدفاع عنها واستقتل في إثباتها لغاية واحدة لا أكثر، نعم هو إنما جنح إلى ذلك من أجل تسويق إلحاده الذي صار عقيدة عنده يتعصب لها! فهو يعتقد بأن ضرب فكرة الخلق يعني ضرب الأديان! ومن ثم شيوع الإلحاد! ألف دوكنز كتاب (الجين الأناني) ليجعل من النظرية متكيفة مع علم الوراثة، جاعلا مركزية التغييرات في الكائنات وتطورها تبتني على الجين أو المورثة! ناسيا كيف أن الجين لو كان كما قال فإنه كيف تحول من تلك الأنانية إلى التخلي عن نصفها تماما بعد أن تحول التكاثر -بحسب ما يعتقد التطوريون- من تكاثر لا جنسي من الأم مباشرة إلى تكاثر جنسي يتم بالتزاوج واختلاط الجينات، بما يعني أن الجين له إمكانية البقاء بنسبة ٥٠٪!

كما افترض دوكنز أن العقائد والأديان إنما تطورت واستمرت بعملية مشابهة لعملية بقاء وتطور الكائنات! جاعلا (الميم) في قبال

(الجين)، فالميمات هي وحدات التناقل الثقافي بين الأجيال، فهناك ميم للدين وآخر للعادات والتقاليد، وهكذا بقية الجوانب الثقافية الأخرى، وينتقل الدين عبر الأجيال والمجتمعات عن طريق هذه الميمات، ولا أدري كيف لعالم طبيعي تجريبي كدوكنز -وهو المحارب للغيبيات- يأتي بفرض خرافي ليس فيه إثبات ولا يمكن التحقق منه وفق مناهج البحث العلمي؟! فالميمات ما هي إلا افتراض نظري مجرد.

وقد وردت هذه اللفظة لأول مرة في كتاب (الجين الأناني) لريتشارد دوكنز المنشور في العام ١٩٧٦، ويبدو أن موقف دوكنز حيال الميم غامض، إذ رحب بما اقترحه ن . ك همفري عندما قال: «يجب اعتبار الميمات كائنات حية وليس مجازيا فقط مقترحا اعتبار الميمات «ساكنين فيزيائيين للمخ».

ضف إلى ذلك فإن مسألة الميمات قد أُبطلت بعد أن كُشف النقاب عن خريطة الجينيوم البشري عام ٢٠٠١ في الولايات المتحدة الأمريكية، وهذه الخريطة كشفت أيضا عن خطأ ووهن فكرة الجين الأناني التي صنف لأجلها دوكنز كتاباً كاملاً، فلم يعد هنالك سند علمي جيني تعتمد عليه هذه الفكرة، أما فكرة الميمات إذا كانت ثابتة عبر العصور فما هو المصدر الذي أوجدها؟ وهل هي إلا حجة على وجود الفطرة

الانسانية؟ وهنا يُطرح السؤال: لماذا يعتمد الملحدون دوكنز وأمثاله على الخرافة والأسطورة ويترك العلم التجريبي الذي أصخبنا تبجحا به؟!

أما في كتاب (صانع الساعات الأعمى) أو ما يعرف عند البعض بـ (الدارونية الجديدة)، فقد تغيّا به دوكنز ضرب البديهية الأكثر رسوخا في العقل والوجدان الانساني، وهي أن (النظام أو التصميم الذكي لا يمكن أن يأتي من الفوضى والعشوائية)، فدوكنز يخالف هذه البديهية ويذهب إلى أن الفوضى والعشوائية بإمكانها أن تأتي بالنظام الدقيق الذي تشكلت به الكائنات الحية، نافيا أن يكون هنالك خالقاً لهذه الكائنات المعقدة، فهو يعزو إلى ذرات المواد الموجودة داخل الخلية بأن لها القدرة على أن تصنع مليارات الصور الذكية والمبدعة والنظم الراقية والمعقدة، كل ذلك يجري من خلال الحركة الفوضوية والعمياء! مشترطا لذلك توافر الزمن الكافي لحدوث ذلك وامتداده إلى ملايين السنين.

إن من يمتلك عقلا رياضيا يفكر به لا محال سيرفض هذه الفكرة الدوكنزية إن صح التعبير؛ لأنه من المحال أن يتخلق هذا النظام الفائق الدقة والجمال، المبهر في التعقيد والضبط لأنواع من الكائنات تتجاوز العشرة ملايين نوع على الأرض في حدود عمر الكون الذي لا يتجاوز أربعة عشر مليار سنة!! نعم فإذا ما عرضنا هذه المشكلة على قانون

الاحتمال سنحصل على نتائج صادمة لأنصار التطور! يقول دوكنز في كتابه (صانع الساعات الأعمى) ص ٧٠ ما نصه: (لتقييم مصداقية أي فكرة فإن الطريق الصحيح هو قياس قلة احتمالها). فقانون الاحتمال يشترط في المحتَمَل أن يراعي الزمن المسمى بـ (الحد الكوني)، وهذا القانون يضع حدا لأصغر احتمال ممكن اعتمادا على حدود الكون من حيث عمره وعدد ذراته وحجمه وأقصى حركة ممكنة للذرات بلوغها خلال هذا العمر، فإذا قلّ الاحتمال عن الحد الكوني سيكون من المحال حصوله.

وقد استخرج الحد الكوني من قبل عالم الرياضيات الأمريكي وليام دمبسكي، ويبلغ هذا الحد رقم (١/ ١٠ أس١٥٠)، أما كيف حصل دمبسكي على هذا الرقم فقد كان من خلال ضرب عدد ذرات الكون في عدد الحركات الممكنة لكل جسيم في عمر الكون بعد أن ضاعف عمره مليار مرة، وعدد الجسيمات الذرية في الكون تبلغ ١٠ أس ٨٠، وأقصى عدد ممكن لحركات كل جسيم في الثانية الواحدة حسب زمن بلانك ١٠ أس ٤٥، وزمن بلانك هو أصغر زمن يمكن أن يحدث فيه حركة، أما عمر الكون بالثواني فيبلغ ١٠ أس ٢٥، والنتيجة تكون: ١٠ أس ٨٠ × ١٠ أس ٤٥ × ١٠ أس ٢٥= ١٠ أس ١٥٠. وعلينا أن

نأخذ بنظر الاعتبار مضاعفة عمر الكون مليار مرة عما هو مقدر وفق المعطيات العلمية! وبالتالي فالحد الكوني الحقيقي أقل بكثير مما هو متفق عليه!

أما مع مسألة التطور فإنه يحتاج إلى حد أو قانون يكون فيه العمر أقل بكثير من عمر الكون الذي ضاعفه دمبسكي ألف مرة! وعدد ذرات الكائنات الحية أقل بمليارات المرات من عدد ذرات الكون كله! ويحتاج القانون الجديد لأقصى حركة يمكن لكل ذرة أن تبلغها خلافا لحركة الجسيمات الذرية الكبيرة جدا حسب زمن بلانك، وبالتالي سنحصل على ناتج صغير جدا بالقياس مع حد دمبسكي.

ويذكر دوكنز في صانع الساعات الأعمى صفحة ٧٥ أن احتمال ظهور بروتين الهيموغلوبين حسب قوانين الاحتمال يبلغ ١/ ١٠ أس ١٩٠، والهيموغلوبين بروتين يتكون من أربع سلاسل من الأحماض الأمينية المضفورة، والسلسلة الواحدة منها تتكون من ١٤٦ حمضاً أمينياً، والأحماض الأمينية يبلغ عددها ٢٠ حمضا، وبالتالي فاحتمال ظهور السلسلة هذه من الفوضى سيكون ٢٠ مضروبا في نفسها ١٤٦ مرة! فنحصل على حد أو عدد الهيموغلوبين ١/ ١٠ أس ١٩٠ كما سماه دوكنز.

وما ذهب إليه دوكنز يبين أنه لكي يظهر بروتين الهيموغلوبين من الفوضى وفق قوانين الاحتمال يحتاج إلى هذا الرقم الذي تجاوز الحد الكوني بأكثر من أربعين صفرا!! وهذا يعني أن دوكنز قد نسف نظريته بنفسه من خلال ما ذكره سابقا! فظهور البروتين الهيموغلوبيني أمر مستحيل وفق هذا الرقم المتجاوز للحد الكوني.

ومن جانب آخر فإن هنالك تصريحاً لدوكنز يذكره ألفن بلانتجا في مقابلة أجراها معه جاري جتنج دونت في مركز براهين لدراسة الإلحاد، نفهم منه أن الإلحاد لا يستند إلى براهين منطقية في تبرير منهجه، فقد سُئل في مقابلة مع صحيفة الإندبندنت البريطانية هذا السؤال: «لو أنك مت ثم قدمت على أبواب الجنة، ماذا ستقول لله لكي تبرر إلحادك الذي لازمك مدى الحياة؟ فكان جوابه: سوف استشهد ببرتراند راسل؛ لم يكن هناك أدلة كافية، يا رب! لم يكن هناك أدلة كافية»، وعوز الأدلة إن كان فهو لا يوفر ولا يبرر الإلحاد، وأكثر ما يمكن أن يؤديه انعدام الأدلة بحسب دعوى دوكنز هو اللاأدرية.

إن ما نُقل عن ريتشارد دوكنز يبين أن الرجل لا يمتلك الأدلة القطعية على إلحاده، وأن أدلة وجود الإله موجودة لكنها ليست كافية بمقتضى كلامه، وبالتالي يمكن القول أن دوكنز لا يمتلك القطع بوجود

إله كما لا يمتلك القطع بالإلحاد، فهما سيان بالنسبة إليه، والمنطق السليم يحتم عليه أن يتبع ما يمكن أن يدفع أسوأ الأحوال، وهو أن يتبع أو على الأقل أن يدعم فكرة وجود إله مسيطر على الكون؛ لأن إيمانه بهذا الإله إن كان حقا فهو قد تخلص من تبعات الكفر والإلحاد، وإن كان غير موجود فهو لم يخسر أي شيء، خلافا لاختياره وتبنيه الإلحاد؛ لأن الإلحاد لو كان على خطأ فهو في الآخرة من الخاسرين!!

وفي كتابه المسمى بـ (صانع الساعات الأعمى) صفحة ٢١ يقول إن الكون ما هو إلا شظية من الكون الفعلي، وهو يخالف بذلك ما قاله في كتاب (وهم الإله) صفحة ١٤٧ يقول: لقد وُضعت هذه الفرضية في محاولة للهروب من صدمة الفيزيائيين من يقينهم بأن احتمال ظهور نجم واحد كشمسنا من الفوضى محال. كيف لا ومركب بروتيني واحد ذو طول قصير جدا جدا جدا يبلغ جزءا من مليون جزء من المليمتر لا يمكن أن يظهر من الفوضى أو الصدفة ولو اجتمع العالم على ذلك! يقول بول ديفيس في كتابه (العوالم الأخرى) صفحة ١٨٦ ما نصه: إن ظهور الشمس نتيجة الفوضى تساوي ١/ ١٠ أس ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠!!! وهذا احتمال يمكن لنا أن نقول عنه بأنه المستحيل بعينه!! وهذه النتيجة تعني أن لابد من الاعتقاد

بخالق لهذا الكون قادر وحكيم، وهذا كلام مبني على العلم التجريبي كما لاحظنا. وهناك كثير من المغالطات والأخطاء التي امتلأت بها كتب داعية الإلحاد المعاصر ريتشارد دوكنز لا مجال لذكرها، وما ذكرناه يبين مدى عناد الرجل وخداعه الواضح في هذا الجانب.

المحتويات

نقد الإلحاد التطوري ١

مقدمة ٣

الفصل الأول مقدمات عن الإلحاد ونظرية التطور ٧

الإلحاد ظاهرة موغلة في القدم! ٨

بدايات ظهور الإلحاد في المجتمع الإسلامي ١٢

انبعاث الإلحاد من جديد ١٦

نظرية التطور بإيجاز ١٨

أسباب التأكيد على النظرية ٢٣

الحياة صراع من أجل البقاء! ٢٧

الفصل الثاني نشأة الحياة كما يراها علماء الطبيعة التطوريون ٣٣

مراحل نشأة الحياة ٣٤

تكوّن الجزيئات العضوية ٣٨

تكوّن الجزيئات الممهدة للحياة: (DNA) و(RNA) ... ٤٠

كيف تكوّنت الخلية الحية؟ ٤٥

أهمية الخلايا البروكاريوتية (الفاقدة للنواة) ٥٠

نشأة الكائنات الحية متعددة الخلايا ... ٥٣
نظريات أصل الحياة ٥٥

الفصل الثالث اشكاليات النظرية التطورية ومابني عليها ٦٣
التعاون بدل التنازع! ٦٤
من أين أتى البروتين؟ ٦٨
انهيار نظرية الحساء البدئي! ٧٣
الخلط بين التطوّر والتكيّف ٧٧
نظرية التطور تخضع للتطور والتكيف والهرمنة!! ٨٢
الأحفوريات ضد النظرية! ٨٥
التطور من نظرية الى ايديولوجيا ٩٥
الجينيوم والمكروبات والكيمياء الحيوية تحرج التطور! ١٠٢
اشكالية التطور على قفزات ١٠٤
اشكالية انتقال الحياة من الماء إلى اليابسة ١٠٨
اشكالية تطور الطيور من الديناصورات ١١١
اشكالية قوانين الديناميكا الحرارية مع التطور ١١٤
خرافات زعيم الدارونية الجديدة (دوكنز) ١١٦